ملاحـــق

أولا : الكتابات الاجتماعية

ثانيا : نقـــد النص

أولا :

الكتابات الاجتماعية

١ ــ مصر وحدها

* ابراهيم المويلحى

ذكرنا الشرق والغرب ثم ذكرنا الشرق وحده والآن نخص منه مصر على حدة لانها واسطة عقده وجوهرة تاجه وهى أزهى البلاد سماء وأحلاها ماء وأثراها أرضا وأوفاها نهرا وأنماها نسلا وأصفاها ليلا وأجلاها نهارا وأوسطها اقليما وأبسطها عيشا ولو واصلت رجلا بالتلغراف فى ساعة من النهار من لوندره مدينة الدنيا وأم العواصم ومفتخر الانكليز وسألته عن ظلمتها وضيق الانفس والانفاس فيها ثم سألك هو وأنت فى مصر عن تجلى الشمس ينبوع الحياة فوقها لوصف لك ظلمة القبور ولوصفت له نور القصور • وقد اعترض انكليزى على مجوسى من الهند لعبادته الشمس فقال له المجوسى لو كانت تشرق فى بلادكم مثل اشراقها فى بلادنا لعبدتموها معنا • وأرض مصر تنبت ما ينبته كل اقليم لاعتدالها وخصب ترابها • ولو حفظ الحكام ثروتها التى تذهب الى الاجانب ذهاب نيلها فى البحر لم يعادلها بلد فى الغنى والثروة ولبنى أهلها قصورهم من لبن الذهب والفضة ولأصبح فلاحها فى غنى سوارسها اليوم ولكن •

كُتِبَ الْفَقْرُ والْخَسَارُ عَلَيْنَا
وَعَلَى الظَّالِمِينَ سَلْبُ الْحقُوقِ

وقد صارت بهذا مطمحا للطامع وملتهم ومسرحا للمفترس فامتصوا ثروتها واقتصوا من أهلها ورصدوا كل زهرة ليقتطفوها

(*) مصباح الشرق ، العدد ١٧ ، السنة الأولى ٢٢ ربيع الأول ١٣١٦ ١٣ أغسطس ١٨٩٨ ، ص ١ ، ٢ .

ويختطفوها عند ابانها ونضجها حتى أصبحت تلك المحاسن الطبيعية فى عيون أهلها من المشوهات لجمالها .

والمصريون يغلب على أخلاقهم الدعة والدماثة ولين الجانب وحب الاكتفاء حتى تكاد تنطبق حياتهم على قواعد الفلسفة لو كان ما غلب أخلاقهم مما ذكرنا من تلك الصفات لم يكن نتيجة عن الظلم وعما ولدته قسوة الحكام فيهم وغلظتهم عليهم فقد حملوهم من ذلك ثقلة الاهرام على كواهلهم وضربوا عليهم ان لا يئنوا لكيلا يكدر أنينهم صفاء الحكام فلبثوا فى هذا العذاب المهين قرونا لا يرجون نزول رحمة ولا رفع ظلامة ولا انفراج أزمة ووضع الحكام امام الرعية سدا فلا يرون ولا يسمعون عن غيرهم من الرعايا شيئا فظنوا ان حياة كل رعية تحت حكامها مثل حياتهم يظلمونها وتحمد ويقهرونها وتخضع ويسومونها أنواع العذاب وتقبل وما كان يستطيع أحد أن يسافر الى البلاد الأجنبية ولا الى دار الخلافة الا تاجر فى الجوارى أو تاجر فى الجواهر أو مبعوث من جانب الامير فعطلوا من واجبات المسلمين معرفة الخليفة وهو ذلك الواجب الذى نص عليه الحديث الشريف بقوله عليه الصلاة والسلام « من مات ولم يعرف امام زمانه فقد مات ميتة جاهلية » .

وكان البديهى والمعقول فى مثل هذه الحالة ان ينفر الرعايا من حكامهم وهم على مثل ذلك من الظلم والعسف وان يشمئزوا منهم ويطلبوا الخلاص من ربقتهم وينظروهم نظر المبغض الكاره

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأجسام

الا ان استمرار الظلم عليهم ودوام العسف فيهم واعتيادهم عليه أوقعه فى نفوسهم موقع الطبيعى اللازم فكانوا يجلون الحكام ويقدسونهم وينزهونهم عن الصفات البشرية ويتقربون منهم ويفرحون بالنظر اليهم ويفتخرون بالحديث عنهم ويجعلونه أهنأ غذاء لارواحهم

فسرى فيهم حب التفاخر بالحاكم واكتفوا من أسباب المجد والسعى وراء المحامد بما يحتالون له من الانتساب الى ذلك الحاكم الذى يغنى ويفقر بلحظة ويحيى ويميت بلفظة فتولد فيهم الميل الى الكسل وتغالوا فى حب التفاخر غلوا كبيرا فكنت ترى أهل بيت يتوارثون الفخار سلفا عن خلف بمقابلة حاكم من الحكام لجدهم الاعلى • واعرف رجلا وجيها من أعيان مصر كان اذا أتته دعوة من أحد المقامات العالية أطلع عليها كل من يلاقيه فاذا قاربت بطاقة الدعوة ان تبلى لكثرة النشر والطى وضعها فى غلاف يحفظها فلا ينفك يعرضها على الناس حتى يخلقها غيرها • وقد ذكر المغفور له اسماعيل باشا بمحضر من ذلك الوجيه فى أثناء حكاية حكاها لفظة (الرسيف) بالسين وهى بالصاد فى اللغة العربية والمصريون ينطقون بها على أصلها فكان ذلك الرجل الوجيه يتكلف أنواعا من التكلف ليذكر هذه اللفظة فى حديث يخترعه لها فاذا وصل منها إلى حرف السين صفر تصفيراً يشق صماخ من يسمعه ليقلد الأمير فى نطقه •

وكان أحد الحكام فى طنطا كثير الاستهزاء بالناس والاعتراض على سعيد باشا واسماعيل باشا لاعطائهما الرتب لعمد البلاد فقال لعمدة كان حاضرا فى طنطا « كيف أنت يا حضرة البيك » استهزاء به فركع العمدة وسجد ودعا بطول العمر للباشا وأنجاله ولما أخذ طريقه لبيته امسك بأذن خادمه وقال له : قد سمعت بأذنك هذه قول الباشا لى (يا حضرة البيك) فاذا وصلت الى الدوار فلتحلف بالطلاق انك سمعت الباشا يلقبنى بهذا اللقب •

ومن هنا يظهر ان العمد كانوا يعتقدون ان الناس لا يصدقون برتبهم لانحطاط نفوسهم لديهم عن لقب ينسب للحاكم ويختص به ولهذا تراهم بعد ان زال مازال عنهم لا يرغبون من تعليم أولادهم فى المدارس الا أن يكونوا حكاما لما نبت فى قلوبهم ورسخ فى أذهانهم من

تصور الحاكم بصورة سماوية وغفلوا عن تعليم أولادهم فن الزراعة التى هى الزم الاشياء لبلادهم وبها قوامها .

وكما أنهم تغالوا فى حب التفاخر الى هذه الدرجة السخيفة فقد نزلوا فى الكسل الى حضيضه الادنى حتى كادت تتعطل ارادتهم : ومن ذلك ان رجلا من الموجودين الآن بيننا كان له فى المالية أيام كانت فى القلعة سبعمائة كيس فأقام مدة يقترض بالفائدة عليها من جيرانه ولا يذهب لاخذها .

وكانوا يعتقدون أن من يتاجر فى السودان ينال الغنى والثروة الطائلة وكان أمامهم المثال الناطق عن رجل منهم هو من أدنى طبقاتهم فذهب الى السودان فعاد وهو أغناهم فلم يخطوا خطوة الى تلك الكنوز واكتفوا فى تسلية نفوسهم بأن الناس يعلمون ان الرجل كان دونهم قدرا وأدناهم أصلا .

ولما تقطعت ربق الاستعباد عنهم قليلا لم ينشطوا الا الى تقليد الحكام فى اسرافهم وتبذيرهم فبنوا فى القرى والكفور مثل قصور الملوك وبذلوا عليها اضعاف ما يبذل على أمثالها فى المدن لبعد الشقة وكلفة المشقة ولو بيع قصر منها لم تبلغ قيمته قيمة بيت صغير فى المدينة لقلة من يرغب فيها بعد ان زخرفوها زخرفة البيوت الغربية برهن أطيانهم وبيع املاكهم .

وقد يخشى الآن صاحب النظر الثاقب فى العواقب ان أطيان القطر ستخرج من أيديهم وهم بين حب التفاخر ونومه الكسل بالشركات الانكليزية وبما يبتاعه منهم صيارفة اليونان واليهود فيعودون الى الرق فى طلب الرزق ولا ينتفعون بالحرية بين الرقين وربما يكون استعبادهم الاول خيرا لهم من استبعادهم الثانى . ومن كان هذا همه من الدنيا سجل عليه المحتلون خلودهم فى بلاده وامتلاكهم لها .

فيجب على المصريين أن ينفضوا غبار الكسل عنهم وان يتركوا

التفاخر بافعال الآباء والاجداد وان ينظروا ما هم فيه فينشئوا الشركات الوطنية فان الواحد قليل بنفسه كثير باخوانه وان يقلدوا الغربيين فيما يكسبهم المجد ويضمن لهم حسن الاحدوثة فى الحاضر والمستقبل ولا ينسوا ان المستقبل لهم ولاولادهم وذرياتهم فان اغفلوه فقد أغفلوا خير أبنائهم وهذه بلاد السودان على الفتح فان فتحت فلا يليق بشأنهم وهممهم ان يسبقهم اليها تجار اليونان فيقتطفوا زهرات ارباحها وهم متغاضون عن منافعهم مشتغلون فيما يجلون عنه قدرا ويترفعون عنه مقاما من سفاسف الامور • ولو جمع ما يبذر من أولاد أهل اليسار من الكبراء فى الازبكية فى مدة أسبوع لكفى لانشاء شركة تجارية والقليل مع القليل يصير كثيرا •

ومما يذكر فى جمع القليل للعمل العظيم ان رجلا فى الاستانة كان يمر على باعة الفواكه فيسأل عن ثمن ما يعجبه منها ثم يخرج من كيسه ثمن المقدار الذى يكفيه ويحفظه جانبا ويقول « سنكى يدم » (أى كانى أكلت) ومازال هذا دأبه حتى جمع من المال مقدارا بنى به جامعا وسماه (سنكى يدم) •

وقد عزمنا ان نذكر العوائد المصرية حسنها وقبيحها ليقبل المصرى على الحسن وينفر من القبيح •

٢ ــ مصر وحــدها

* ابراهيم المويلحى

(العادات المصرية)

لم يكن شىء فى الوجود الا وضعه البارى سبحانه وتعالى تحت حكم التغيير والانتقال وهو الذى يغير من حال الى حال وينقل من وضع الى وضع ولا يختص التغيير والانتقال بالماديات بل يتناول المعنويات أيضا فمنها يتغير تغيرا يدركه الحس ومنها ما يظهر تغــيره على مرور الازمان وكرور الاعصار •

وليس التغير فى الشىء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء بل يكون التغيير تارة سريعا ثم يتغير سيره فيصير بطيئا • وممــا يدخل تحت حكم التغيير عادات الامم وأخلاقها • والرسوخ والثبوت فى وصفها نسبى فهى فى تغير وانتقال على الدوام وربما تعودت الأمــة عادة ودامت عليها أزمانا ثم تحولت عنها الى أخرى وبعد هذا التحول بزمن طويل أو قصير عادت الى عادتها الأولى مرة ثانية •

فمن ذلك عادة المصافحة وهى من الســنة الشريفة النبوية كانت شائعة بين المصريين ثم زالت أو كادت وقد أدركنا الناس لايصافح بعضهم بعضا الا أرباب الطرق من أهل التصوف فانهم بقوا على السنة وأمــا التحية بين طبقات الناس فانها كانت باللسان واشارات اليد أو بتقبيل اليد أو بغير ذلك من لثم الاذيال وهــو مما أوجبــه على الناس كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوى الذين لا ينبغى الا أن يكونوا قدوة للناس فى تعليم مكارم الاخلاق انه كان اذا قبل يده أحــد حضر الخادم فى الحال بالماء فغسل ابن النبى يده أنفــة واستقذارا من لمس يد أخيه المســلم •

(*) مصباح الشرق ، العدد ١٨ ، ٢٠ ربيع الأول ١٣١٦ ، ١٨ اغسطس ١٨٩٨ ، ص ١ ، ٢ •

ولما اختلط المصريون بالغربيين عادوا الى السنة النبوية والعادة المصطفوية ولكن من طريق التقليد للأجنبى وصار العظيم يصافح من دونه وأخذت التحية بالاشارات فى التلاشى ولاشك أن هذا من محاسن الأخلاق التى تستوجب مدح صاحبها ولكن لو كان الرجوع اليها من باب الرجوع الى الاقتداء بأخلاق النبى صلى الله عليه وسلم لكان المدح أعظم والثناء أوفر • ومن التناهى فى تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلفين اذا صافحك رفع كوعه حتى يكاد يساوى به رأسه وأمال جسمه وحنى ظهره وأخذ يدك ثم هزها هزا متتابعا وانتفض كما انتفض العصفور بلله القطر وذلك لانهم أخذوا على أنفسهم أن يرصدوا حركات الاجنبى وسكناته فى كل ما يعمله فيأخذوا عنه ماقبح وما حسن بلا نزو ولا تبصر •

ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول وهى من آداب القرآن وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير اذن من أهلها فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » والزمخشرى يقول بعد تفسيرها « وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك بينا انت فى بيتك اذا رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن سمع ما انزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية » وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمنا ثم زالت من بينهم وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان • ثم جدد فيهم تلك السنة النبوية اختلاطهم بالأجانب فأخذوها عنهم وقلدوهم فيها وبلغت بهم سماجة التقليد الى طلب الاذن بالنقر على الباب واجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبى وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره ولو كان الرجوع الى هذه العادة رجوعا الى آداب الدين لكان أولى بأمة أدبها الله فى كتابه أحسن تأديب •

وقد كانت اللغة العربية انحطت فى جميع طبقات الناس بعد ارتقائها انحطاطاً تستك منه المسامع وتنفر منه الطباع وتبدلت احرف منها بغيرها فكنت ترى الشيخ الجليل والكهل النبيل قد تخنث فى حديثه فأبدل جميع مافى كلامه من حرف القاف بالهمزة وأبدل الجيم العربية بجيم لا تعرفها العرب وابدل الضاد بالدال والظاء بالضاد والثاء بالسين والذال بالزاى ثم يساعد لسانه بيده من العى فيكثر من الاشارات والحركات والالتفاتات أيضا حتى يمله سامعه ويستثقله ناظره وهذا كان يتناول العلماء أيضا فان العالم كان لا ينطق بالقاف الا فى نقل مافى الكتاب فى درسه فاذا خرج عن الدرس فكلامه لا يفرق عن كلام العامة فى شىء ولا يسلم من هذه الركاكة والرخاوة منهم الا من كان من أهل الصعيد فانه يبدل القاف جيما مصرية فيخفف بها هذا الاذى بعض التخفيف وربما أراد بعض المتعالمين ان يهجر ابن عطاء حرف الراء فيقلب من جهله كل همزة عثر بها لسانه فى الكلام قافا ولو سمعت الآن بعض من ذكرنا وهو يتكلم ذلك الكلام وينطق ذلك النطق ويشير تلك الاشارات ويطيل فى حديثه ذلك التطويل لبكيت على اللغة العربية الشريفة التى نزل بها القرآن ولرأيتهم قد اهانوها وانتقموا منها لصعوبة تعلمها الناشىء عن تقصيرهم فى أساليب التعليم فضربوها بسياط السنتهم حتى خلطوا بعضها فى بعض وصار الأجنبى اذا سمعها ينفر منها سمعه لرخاوتها كما وصفها الأجانب بهذا فى كتبهم • وسمع غربى مصريا من شبان هذا الزمان يتكلم باللغة العربية على قواعدها فاصغى اليه طربا وأنصت لحديثه معجبا من حسن اللغة وقال ان الغربيين ظلموا هذه اللغة فقال له الشاب ان المصريين هم الذين ظلموها بما فعلوا بها • ومن العجب ان بعض الذين يعرفون هذه اللغة حق معرفتها لا يتكلمون الا باللغة المستهجنة ويتركون لغة تكسو مقاصد المتكلم حسن القبول فى القلوب • وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف للحروف رسما ولا تعرف لغلطه حدا وله أيضا من عى القلم جمل يكررها بلا معنى ولا فائدة واستعارات باردة تقشعر منها الابدان وتستكرها الاذواق كقول بعضهم

لامير فى الدعاء له (والله يبقى الامير وانجاله مسلسلين بقيود النعمة فى أوتاد الدوام) وربما كانت هذه الجملة وامثالها هى التى شهرته بالبلاغة بين اقرانه أما الآن فقد تغير الحال وأخذت اللغة العربية فى الرجوع الى حمال رونقها والكتابة فى العودة الى بهاء بهجتها فترى الغلام التلميذ يتكلم بالالفاظ الفصحى ويكتب الكتابة مزدانة بالمعانى الجزلة منطبقة على قواعد الرسم خالية من الحشو وترى كثيرا من رجال النيابة والمحامين يقفون فى موقف الخصام والدفاع فيمثلون لك ماكنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة وأمثالهما من فصاحة الالفاظ وجزالة المعانى وحسن التشبيه ولطف الاسلوب وبراعة الالقاء مما يكون لـه وقع فى النفوس ومنزله فى القلوب وقد أخذ هـذا يمتد فى جميع الطبقات وينتشر بينها على قدر مداركها واستعدادها فتغير أسلوب الكلام فى المجتمعات فاصبح أقرب الى العربية الفصحى منه الى العامية العجمى • ولو دام هـذا الترقى فى اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبى تمام فى النثر والنظم والفضل فى ذلك للمدارس والمطابع والجرائد ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الاوفر من ذلك الفضل لأنها دروس يومية فى الانشاء والسياسة تشترك جميع الأمة فى تلقيها وتتربى فى ملكاتها بالأخذ عنها ولكننا نرى بعضها قـد خرجت عن حد ما وضعت له وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها لأن المشترك لم يعط ثمنها الا لاستفادته من نقل الاخبـار وابداء الأفكار فاذا خالفت هذا وجاءت الى المشترك فى حجرته بين أهله وأولاده حاملة منأنواع السباب والشتائم ما يكرم نفسه عن المرور بقائله والناطق به فقد أضاعت وقته وسلبت ماله وأقرأته ماكان ينفر من سماعه وأدخلت فى حجرته ما يستعيذ له بالله من هجر القول وفحشه • فان كانت الجرائد تفيد الناس من جهة فانها تضر بآدابهم من جهات فيجب على الحكومة التى بيدها الحل والعقد فى شؤن الرعية ان تبحث لايجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقوفها موقف السـباب والشاتم والقـاذف واعراض الناس وديعة فى يد الحكومة فينبغى أن تحافظ عليها • ومـن

دار الخلافة مقر الدين ومركز التمدن الاسلامى فان أهلها لا يخرجون فى أعراسهم عن حد السنة الشريفة النبوية من ايلام وليمة ليلة الفرح ولا يشمخ بهم الغنى وعلو المناصب وسمو المراتب الى الفخفخة الباطلة فى العرس والجهاز • وقد حضرنا أفراحا لبعض الوزراء والعظماء لم تخرج عن دائرة البساطة فكان الاجتماع فيها قاصرا على الأقارب والاصدقاء لوليمة واحدة فى ليلة واحدة وتلك عادة القوم من عهد الفاتح الى اليوم لاتمتاز طبقة عن طبقة فى التمسك بها والعمل على موجبها • وجميع البلاد الغربية والبلاد الشرقية على مثل ذلك فى الاحتفال بالأفراح فالمسلمون يقتفون السنة النبوية وغيرهم يكتفون بما يلزم للشهرة والاعلان وكلهم متفقون على فعل الواجب فى هذا • ولكن المصريين قد شذوا عنهم شذوذا بعيدا فخالفوا السنة وأفرطوا فوق ما يكفى للشهرة والاعلان وتغالوا فى التبذير حتى أن قلم الكاتب ليعجز عن وصف الفرح من يوم الخطبة الى ليلة الزفاف وما يجرى فيه من المنفرات منه لمن يتأمل وما يبدد فيه صاحبه من الأموال التى يشترى بها سهره ونصبه ومرضه وذمه ولومه وشتمه وندمه وما يجمع بيت الفرح من أصناف الناس وغوغائهم فقد يجتمع فيه ألف أو الفان أحيانا فتختلط أنفاسهم بروائح الطعام والشراب والغاز والشموع والزيوت والدخان وما يعقب الانس والطرب فى أخريات الليل فاذا تنفس المتنفس فيها فكانما يتنفس فى معمل كيماوى يحتوى على ألف نوع من المكروب ولو وقف طبيب على باب البيت وكشف على صحة الداخلين لوجد اضطرابا فى أمزجتهم ومبادىء أمراض خالطتهم فى خروجهم فماذا يكون حال رب البيت اذا تنفس فى هذا الجو وقد صارت رأسه كخلية النحل تدوى فيه الحاجات والطلبات •

وان يد الحاسب لتكل من عد ما يلقى عليه من حساب النفقات على أدوات الزخرف والفخفخة حتى اذا انطوت الليالى الصغرى وجاءت الليالى الكبرى فتح صاحب الفرح كيسه للتبديد وجفنه للتسهيد وفمه

الغريب ان أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم فى منزلة الرادع والوازع والواعظ والناصح ويشتمون لمنع الشتم ويسبون لمنع السب •

فان لم تفعل الحكومة ما يجب عليها فى هذا الباب لم يبق الا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية •

٣ ــ مصر وحدها

* ابراهيم المويلحى

العادات المصرية

ثلاثة تشقى بها الدار
العرس والمأتم والزار

أثنان من هذه الثلاثة يشارك المصريين فيها أهل الأرض جميعا وهما العرس والمأتم ولكن على صورة يسلم بها العقل ولايحرمها الشرع ولا ينفد فيها المال الذى هوملاك الحياة وقوام المعيشة • والثالث الزار (ونعوذ بالله من قوم يفعلون فعل المجانين ويقربون فى بيوتهم القرابين للشياطين) فهو مما اختص به المصريون ولا يكاد يشاركهم فيه أحد •

أما العرس فهو من مقتضيات الهيئة الاجتماعية لما ينترتب عليه من اشتهار الزواج بين الناس اثباتا للنسب ونفيا للمظنة ويكفى لهذا الغرض أن يجمع صاحب العرس خلصان اصدقائه وأحبائه لوليمة تنتهى فى ليلتها كمانراه فى البلاد الاسلامية وغير الاسلامية وكما نشاهده فى

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢٢ ، ٢٨ ربيع الثانى ١٣١٦ ١٥ سبتمبر ١٨٩٨ ، ص ١ ، ٢ .

بالتأفف ويده للاقتراض وتوزع فكره بين المشـــاغل الكثيرة والطلبات العديدة فلا يستطيع حصر فكره فى احكام شىء من اعماله فانه اذا دعـــا من معارفه كثيرا نسى منهم كثيرا فينتهى الفرح وقـــد عاداه من اغفـــل دعوته وحقد عليه من دعاه لعجزه عن القيام بما يوجبه عليه المدعوون فى استقبالهم من زيادة الاحترام والاكرام وفى اجلاسهم مجالسهم التى يرضونها مع من يشاكلهم ويناسبهم وفى التأهيل بكل واحد منهم بمـــا يليق بهـــ من عبارات التحيـــة والترحيب وفى دعوتهم الى الطعام على الترتيب الذى يرضاه كل واحد منهم ـــ وهو من المستحيل ـــ ثم تشييعهم عند الذهاب بما قوبلوا به عند الحضور وزد على ذلك أن كل هفوة تقع ممن يخدمون فى الفرح لأحد المدعوين تتجسم فتصير جرما يعلق فى عنق صاحب الفرح • فانظر مما تقدم الى رجل لم ينم ثلاث ليال الا غفوات يختلسها ولم يقض حاجة الا غشيت حاجات أخرى لا مفر له من قضائها وهو مقسم الفكر فى حفظ نظام الفرح يخشى فى كل لحظة ما يكدر صفاء الأنس ويرى كل هفوة تصدر من غيره ذنبا يلصق بأدبه وكلمـــا أفاق لحظة خاف ان يكون مقصرا فى اكرام من دعاهم وهو مع هذا كله قـــد بعثر أمواله بدرا بدرا بعـــد أن جمعها بكل الوسائط درهما درهما وان سألت عن الأمر العظيم الذى أجبر على الوقوع فى هذه الورطة لاتجده الا تقطيب زوجته ليلة أو ليلتين اذا أبى عليها تقليد فلان وفـــلان فى أعراسهما على انه لو تأمل بعض التأمل لوجد أن هذا التقطيب أخف محملا مما يعقب العرس من الشقاق الذى ينتهى أحيانا بالفراق فما أضعف الرجل القوى اذا تسلطت عليه المرأة الضعيفة •

ولا يفوتنا أن نذكر ما تصاب به ربة البيت من صواحبها فى الاستقبال والترحيب والترتيب والتشييع وغيره مما يفوق ما ذكرناه عن رب البيت بأشياء كثيرة نكتفى بأن نذكر منها اهتمامها بملاحظة ما على المدعوات من الحلى والجواهر فان ضاع منهن شىء وهو ما يقع كثيرا تكدر الصـــفاء وانحل النظام بينهن واتهم بعضهن بعضا وكادت تحس بأنها الســـارقة

لما ضاع • وعواقب ذلك كله لا تقع الا على رأس صاحب البيت الذى كلما التفت وجد مشكلا جديدا •

ومن الغريب أن الختان مع عدم الضرورة لاشتهاره لا ينقص الاحتفال به عندنا عن الاحتفال بالزواج •

وهذه النفقات الطائلة التى تنفق على العرس أو الختان لم نسمع أنها جلبت نفعا صغيرا فى جنب ما تجلبه من المضار والخسائر الجسيمة سوى أن يؤرخ صاحب الفرح به فيقول حصلت حادثة كذا بعد فرحى بسنتين أو قبله بسنة وتؤرخ به صاحبة البيت مواليد ابناء الجيران • والطامة الكبرى اذا كان الفرح لزواج بنت فانها تستنزف مال أبيها بما يشترى من أصناف الجواهر التى يقبر فيها المال الحى • يحكى أن المرحوم على باشا شريف طلب من والده المرحوم شريف باشا الكبير أن يشترى عقدا من الجواهر لاحدى بناته فماطله مدة ولما أكثر من الالحاح عليه أمر باحضار عقد من باعة الجواهر ثم أرسله الى المقومين فقومه واحد بألف جنيه وقومه ثان بثمانمائة وقومه ثالث بألف ومائتين فأخرج المرحوم من جيبه جنيها وناوله أحد جلسائه وسأله عن قيمته فقال مائة قرش ثم أداره على بقية الحاضرين فلم يختلفوا فى مقدار قيمته فقال لابنه ينبغى للعاقل أن لا يقتنى الا ما اتفق الناس على قيمته وأمر برد العقد لصاحبه بهذه الحجة الدامغة •

ولو ان أصحاب الأفراح وضعوا ربع ما انفقوه على أفراحهم فى صندوق مثل صناديق الادخار فى أوربا لتجمع منه فى بضع سنين من المال ما يشترون به شركات مثل شركات بسنديلة والبواخر الخديوية والدائرة السنية وغيرها • وقد كان فى هذا الاسراف على علاته فائدة لأهل البلد بما كان يشترى منهم من لوازم الافراح فتحولت تلك الفائدة عنهم الآن الى الأجانب وصار يجلب جميع ما يلزم للافراح من البلاد الأجنبية •

ومن البلاء أننا نترك كل عادة نافعة ونتمسك بالعادات المضرة فمن العادات التى تركت عادة اهداء الهدايا الى صاحب الفرح فانها كانت تخفف من انفاقه وكان يردها لأصحابها فى أفراحهم وكان فى هذه العادة مبدأ جليل من مبادىء التعاون لو اتسع لنفع فى غير الافراح كما انتفع به أهل الغرب فزالت هذه العادة من بين الرجال وبقيت عند النســاء فى الطبقة العليا ولكنهن لا ينتفعن بها فان كل واحدة من المدعوات تهــدى ليلة الزفاف للعروس شالا من الكشمير أو أكثر فتقوم امرأة فتأخــذه بيدها وتعرضه على الحاضرات وهى تصيح بأعلى صوتها باسم من أهدته فيجتمع من هذه الشيلان فى بعض الأفراح مئات فيوزعها أصحاب الفرح على حواشى البيت وخدمه وعلى من يعملون فيه فترجع تلك الشيلان الى الســوق لبيعها بأرخص الأثمان ممن أعطيت لهم ومن الشيلان ما يتردد على الســوق للبيع أو الرفو حتى يصير فى اهتدائه اليه كطيلسان بن حــرب •

لو بعثنــاه وحــــده لتهــــدى
ولا يزال الشال منها ذاهبا آيبا
والذهب عليــه ضائعــا ذاهبــا

ومن هــذا وغيره ممــا يضيق المقــام عن استيعابه فى الافراح يتبين ان الناس اذا تمــادوا على اسرافهم فى افراحهم وترقيهم فى تقليد بعضهم بعضا انتهى أمر المثرى الى الاحتياج والمكتفى الى الفقر والفقير الى الدين • ولذلك لمــا بلغ سيدنا ومولانا الخليفــة أمــير المؤمنين أن الأهالى فى جهة الاناطول أخذوا فى التباهى والتفاخر بينهم فى الافراح وتبذير الأموال فيها حتى اضطرهم ذلك التباهى والتفاخــر الى بيع املاكهم أصدر ارادته السنية بان يكفــوا عن ذلك وان تكون أفراحهم بسيطة كأفراح أهل دار الخلافــة وهذا مما يــدل على عناية جلالته بمصالح الامة فلم يبق على المصريين الا أن يتبصروا لأنفسهم ويحتاطوا لأمرهم •

٤ ــ مصر وحدها

* ابراهيم المويلحى

(العادات المصرية)

ثَــلاثَة تَشْقى بِها الدَّارُ

ألْعُرْسُ وَالمِاتَم والزَّار

أما المأتم ــ ونعوذ بالله من المأتم ــ فانه من أشنع العــادات • وأبشع المبتدعات وأسخط ما يغضب الرحمن • وأرضى ما يعجب الشيطان• وأوضع ما تنحط به درجة الانسان • عن دركة الحيوان • يستنكره الشرع ويستقبحه العقل : يستنكره الشرع لأنه لا ينبغى لمن آمن بالله واليــوم الآخر أن يتغالى فى الحزن وراء من دعى الى لقاء ربه وهــو يغالى فى الفرح به اذا دعى الى لقاء عظيم أو أمير ولأن ما يفعله الناس فى المأتم منهى عنه شرعا : ويستقبحه العقــل لأن ما يقع فى المــآتم مــن تكبير الأحزان وتكثير الهموم وتجسيم المصائب وتعظيم النوائب مناف للعقل • وجهد العاقل أن يخفف من مصيبته ويلطف من بليته وهــذا التلطيف والتخفيف من أجــل وظائف العقل • وقد حض الشرع والعقــل عــلى التعزية والتسلية وان فى تقصير مدة الحزن دليلا واضحا على استعمال نواهى الشرع وامتثال أوامر العقل •

والحزن ليس بالأمر الطبيعى للانســان اذ لو كان أمــرا طبيعيا لبقى ملازما له لايفارقه والحقيقة خلاف ذلك فان الزمن يزيل الحزن فلا يبقى له من ذكر فى الفــكر والشىء الذى يزيله طول الزمن لا يصعب على العقل أن يزيله اذا حاول ازالته ومحوه وما على الانســان لتصديق

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢٣ السنة الاولى ٥ جمادى الاولى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨ ، ص ١ ، ٢ .

هذه الحقيقة الا أن يذاكر نفسه فيما ألم به من الأحزان العظيمة بموت أقاربه وأصدقائه فانه لا يجد لهـا عنده من أثر يذكر ويجد أنهم لايكادون يخطرون بباله الا بالمناسبات وشجون الأحاديث ويقول شيخ الشعراء أبو العـلاء :

نَسيتُ أبى كَمَا نَسِيَتْ ركابى
وهَذِى الْخَيلُ شَذْ قَمَ والجديلا

والانسان بمخالفته الشرع والعقل يشقى نفسـه ويسىء اليهـا فيوردها موارد المخاوف والمطامع والأحزان ثم لا يكتفى بها بسيطة بل يعمل على تعظيمها وتجسيمها وتكبيرها وتكثيرها ويشـكر من يعظمها معه ويشـكو ممن يصغرها له •

ولا يستريح الانسان فى هذه الفانية ولا تهنأ له الحياة فيها مهما خدمه السعد وساعده المقدور ورفعته الحظوة وتوفرت لديه أسباب اللذات والشهوات والغنى والثروة وأحاط به أماجـد أسرته وبلغ من الفخـر والمجـد والعزة والجاه مالم يبلغه بشر الا اذا نزع من قلبه خوف الموت فان حياته هذه وما تزينت به من المعـالى والتغالى فى أنفس المقتنيات تكون كلوح تصـوير أجـاد رسمه مصـور ماهر فضمنه من مجـالس الأنس ومنازه الابصار ما يفوق وصف الواصفين ويكون الخـوف مـن الموت كزجاجة مداد اهراقه صبى على ذلك اللوح الثمين فطمس به بدائعه ومحاسنه ومنازهه • فاذا كان ينبغى لمن يروم المتع بالحياة وما تجمع من منظر يروق ومخبر يطيب أن لايخاف من الموت على نفسه فكيف ينبغى له أن يفرط فى الحزن على غيره حتى يخرج به الى غير لائق بالسداد •

والناس فى التمتع بالحياة قسمان قسم عالجـوا أنفسهم بمواعظ الدين وقواعد الحكمة فمحوا خـوف الموت من صدورهم وعاشوا فى راحة وهناء أنى قلبتهم يد الدهر وقليل ماهم لأن الارتقاء الى هذه النعمة

الكبرى صعب والطريق اليها وعر ورياضة النفس لمحو ذلك الخـوف من أشق الرياضات وأتعب المشقات • والقسم الآخـر وهو السـواد الأعظم انمـا يتمتعون بالحياة بنسيان الموت فاذا وقع سهمه قريبـا منهم فأصاب من طالت عشرته معهم جال ذكر الموت فى أفكارهم فحزنوا وبكوا وهم يظنون أن الباعث على هـذا الحزن وهـذا البكاء هو موت من مات لهم وانمـا باعثه فى الحقيقة هو خوفهم من الموت على أنفسهم •

واليك ما يجرى فى المأتم • بينا الجيران فى نومة السحر يتقلبون فى مضاجع الراحة على جنوبهم اذا هم بصيحة أعقبتها ضجة تكفى لايقاظ أهل الكهف فيهبون من نومهم وقد أحاط بهم الفزع والجزع وهم يتساءلون عن تلك الصيحة والضجة فيعلمون أن فلانا مات • وربما وقـع هـذا الصياح المستنكر والضجيج المستقبح والمريض فى النزع والاحتضار لم يمت بعد • ولا يزال هذا الصياح فى ازدياد والولولة فى ارتفاع كلمـا دخل البيت داخلة من النساء فلا يتعالى النهـار حتى يصير البيت كسفينة تموج بركابها وقد ادركها الغرق • ومن لنا ببليغ يصف ما يقع حينئذ من النساء من شق الجيوب ونشر الشعور ودق الصدور ولطم الخـدود وغرط الدموع وقد وقفت النوائح بين تلك الصفوف بالدفـوف يهيجن اشجانهن ويثرن احزانهن بألفاظ ملحنة تذيب الجماد وتفتت الاكباد وهن يضربن الأرض بأرجلهن دائرات صائحات باكيات نائحات • ثم يشيعنه بالصياح والبكاء ولاناهى لهن من رجالهن الذين يعلمون أن مايفعلنه مناف للشرع مناقض للعقل وأن ردعهن عن هذا المنكر بالقهر والقوة مما يقضى به الشرع لا فرق فى ذلك بين الحقيرة والعظيمة والبعيدة والقريبة فان أول ما ضرب عمر بالدرة ضرب أخت أبى بكر رضى الله عنهما لما منع النساء من النوح عليه فلم تطاوع •

ولا يفرق المأتم عن الفرح فى الفخفخة الباطلة والنفقات الضائعة اذ لا يزال الكيس مفتوحا الى الأربعين ومن الناس من يقترض لهـذا

الانفاق أو يظلم الورثة بالاسراف فيه وربما كان ما ينفق على المأتم يزيد على ما ينفق على القصر سنوات واسأل بذلك المجالس الحسبية فقوائم الحساب فيها تشهد علىما نقول •

وما قلناه عن الفرح من التكليف بالاستقبال والترحيب والتأهيل والتعظيم والاجلاس والتشييع وما يتبع ذلك من الانحراف بالتقصير كل ذلك واقع فى المأتم بحيث انك لو شاهدت مأتما لما وجدت الفرق بينه وبين الفرح الا برفع المغنى ووضع القارىء •

ومن العادات القبيحة خروج النساء الى المقابر فى الجمع والمواسم والاعياد بالمآكل والمشارب فيقضين الليالى فى تلك الخلوات كأنهن فى بعض المنتزهات وهذا مما ينهى عنه الشرع وتنفر منه الآداب•

ولو نظرنا الى سائر البلاد الاسلامية لوجدنا المآتم فيها مطابقة للشرع وفى غيرها موافقة للعقل فانها تنقضى بليلة واحدة ولا تتغير حالة البيت عما هو عليه ولا تسمع صياحا ولا عويلا ولا بكاء ولا نحيبا •

ومن العادات الممدوحة فىدار الخلافة أو الوافدين للتعزية بعد تشييع الجنازة لا يتلاهون بالحديث ولغو القول كما نفعله فى مآتمنا بل يجدون فى وسط قاعة الجلوس اجزاء القرآن الشريف فى صندوق فيأخذ كل واحد منهم جزأ فيقرأه ويهدى ثوابه الى الميت ثم ينصرفون وينتهى المأتم •

فما أولى المصريين بأن يقتدوا بهذا العمل وأن ينبذوا مثل هذه العادات القبيحة التى ليس وراءها الا ضياع المال واختلال الصحة والاخلال بالآداب والتهاون بأوامر الشرع ونواهيه وفوات الزمن سدى على غير جدوى واحتمال انتقاد المنتقدين وتقريع المنددين من الأجانب الذين يلصقون هذه العادات وأمثالها بآداب الشريعة الاسلامية وهى بريئة منها • وسيأتى الكلام على الزار •

٥ ـ العـادات المصرية

* ابراهيم المويلحى

الموالـد والاذكـار

لو قام السيد الرفاعى والسيد البدوى والسيد الدسوقى والشيخ البيومى رضى الله عنهم وغيرهم من أقطاب الحقيقة وعلام الشريعة من مضاجعهم ومراقدهم ونظروا ما يعمل الناس فى موالدهم من ارتكاب الفجور ومعاقرة الخمور ونشر البغاء وطى الحياء ورقص النساء واغضاب رب السماء لأعملوا فيهم سيف الشرع ولجاهدوا فيهم حـق الجهـاد لهذه المعاصى التى ألصقوها بأديم الدين وجلبوا بها العار على الاسلام والمسلمين فماذا يقول الأجنبى اذا وقف فى مولد البيومى الذى يقام فى العباسية مثلا ورأى مركبات الترامواى كخلايا النحل بالناس يتراجمون عليها من كل فج ولا تزاحمهم على مناسك الحج فاذا جاؤا الى المولد لم يكن لهم قصـد فيقصدوه ولا وجهـة فيتوجهوا اليها وانمـا يختلط بعضهم ببعض تحت سحب من الغبار وفوق طبقات من الاقذار • ورأى حلقات الاذكار وما يدور فيها من الشطح والتغنى والتمايل والتثنى وسمع صنوج الراقصات فى أماكن اللهو مختلطة بدفوف الشاطحين وضوضاء الذاكرين ونظر الى قلائد البغايا فى أجيادهن لا تبعد خطوات عن سبح المشـايخ فى أيديهم وأعناقهم ورآى حانات الخمر والزمـر تجـاور مجالس القرآن ومحافل الذكـر ورآى قوما يمـوج بعضهم فى بعض والاعلام تخفق على رؤسهم والدفوف تدق امامهم فيقفون على كل خيمة للتحية والسلام بنغمات منكرة حتى يصلوا الى خيمتهم فيأخـذوا فى الشطح والتواجد على فقرات الدفوف وعزف الصنوج وأصوات المزاهر وقد علم ذلك الأجنبى أن هذا الاجتماع والاحتفال وتزاحم الاقـدام

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢٨ ، السنة الاولى ، ١١ جمادى الثانى ١٣١٦ ٢٧ اكتوبر ١٨٩٨ ، ص ١ ، ٢ .

انما هو تذكار لمولد ركن من أركان الاسلام وقطب من أقطاب الدين لا جرم أنه يعتقد أن جميع ما رآه وسمعه هو من قواعد الدين وشعائره وأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم كانوا يفعلون هذه الفعال أو انه يعتقد أن ما رآه من الملاهى وارتكاب المنكرات ان لم يكن من الدين فانه من المباحات فيه بدليل وجوده أمام أعين المشايخ وسكوتهم عنه وعما هو موجود فى حلقات الذكر مما له شبيه فى مراسح الرقص ومجالس الطرب من الدفوف والنايات وغيرها ومن شدة التشابه بين رقص الراقصات فى حانات الاوزار وشطح الشاطحين فى حلقات الاذكار • وقد بلغ بالأجانب اعتقاد أن هذا من الدين الى اثباته فى مؤلفاتهم وقد قرأنا فى بعض الكتب الالمانية أن مدينة طنطا من المدن الاسلامية المقدسة عند المسلمين وأن زيارتها أيام المولد تقوم مقام الحج فتسقط فريضته عن الزائر هذا مع العلم بما يقع فى هذه المدينة من الموبقات وارتكاب المحرمات مما يتبرأ منه الدين وتتنزه عنه آدابه الشريفة ولكن وقوعه فى عرض الاحتفال بتذكار مولد من أولياء الله تعالى وسكوت العلماء ورجال الدين عنه جر الأجانب الى الاعتقاد بأن الدين أمر بهذا أو أنه لا ينهى عن فعله حتى قرروا فى كتبهم عن الدين الاسلامى أنه مملوء بالخرافات مشحون بالترهات والخلاعات مع أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى مؤذنه عن التطريب فى الاذان • وقال رجل من المؤذنين لابن عمر رضى الله عنهما « انى لا حبك فى الله » فقال له « لكنى أبغضك فى الله » فقال « لم يا أبا عبد الرحمن » قال « لانك تغنى فى أذانك » فاذا كان التغنى فى الاذان منهيا عنه فكيف يليق بنا معاشر المسلمين أن نساعد الأجنبى على اعتقاد ما اعتقده فينا وفى ديننا لا سيما من اتخذ منا دعوى التصوف وسيلة يستعين بها على قضاء اغراضه الدنيوية فأدخل فى طريق القوم ما ليس منها ونسب اليها أمورا هى منزهة عنها وجعل مجالس الاذكار حلقات شطح ولهو وسماع وقد تقرر أن التغير المنقطع لا يتصرف الا فى واجب أو مندوب وأن المكروه عند طائفة لصوفية كالمحرم لا سبيل الى ذكره فضلا عن فعله فكيف يفعلون

الآن افعالا قد اتفق العلماء على تحريمها • ومع ارتكاب بعضهم ما ذكر فانهم يدعون الوصول الى مقامات ومنازل رفيعة يستعظمها الانسان فى الغالب على من هو متصف بالاقتداء والاتباع فكيف ينالها أهل التخليط والشطح وهم على ما ترى فى ارتكاب ما نهى الشرع عنه •

وقال الامـــام السهروردى « لا شـــك انك اذا تخيلت بين عينيك جلوس هؤلاء للذكر وما يفعلونه فيه فان نفسك تنزه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم عن ذلك المجلس وعن حضوره » •

واستفتى بعضهم فى سنة ٦٦١ علماء المذاهب الأربعة بهذا الاستفتاء «ما تقول السادة الفقهاء ائمة الدين وفقهاء المسلمين وفقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته فى جماعة من المسلمين وردوا الى بلد فقصـــدوا المسجد وشرعوا يصفقون ويشطحون فهل يجوز فعل ذلك شرعا أفتونا مأجورين يرحمكم الله » فقال الشافعية « السماع لهو مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته والله أعلم » وقال المالكية « يجب على الحـــاكم زجرهم وردعهم واخراجهم من المساجد حتى يتوبوا والله أعلم » وقال الحنابلة « فاعل ذلك لا يصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولا يقبل حكمـــه ان كان حاكما وان عقد للنكاح عقدا فهو فاسد والله أعلم » وقال الحنفية « لا يصلى على الحصر التى يرقص عليها حتى تغسل والله أعلم » •

أما من اتخذ منهم الاعلام تخفق فوق رأسه فليس من أهل الطريقة فى شىء لأن السالك لو قدر أن يدفن نفسه لفعل فرارا من الشهرة فكيف ينشر الاعلام على رأسه وذلك من الشهرة والدعوى وأهل الايمان براء من ذلك كله ألا ترى الى قول عمر بن الخطاب لتميم الدارى رضى الله عنهما لمـــا سأله أن يعظ الناس ويذكرهم فقال له عمر « أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى » وقد غر هؤلاء المشايخ ما يظهره الناس لهم من الاعتقاد فيهم اما لغفلتهم وجهالتهم أو لقضاء مآربهم منهم حتى التزموا البلاد وصار كل صاحب طريقة منهم لا يقول بقبول ذكر له فى

البلد الذى هو فيه الا اذا كان على طريقته • وقد ترقى الغرور بأرباب هذه الطريقة الى دعوى الكرامات الباهرة والتبجح بها فى المجالس وعدم التيقظ الى صحة الاعتراض عليها وسهولته فمن ذلك ما يحكى أن المرحوم الشيخ البكرى الكبير كان جالسا مع الشيخ الغلبان أمين الفتوى والشيخ على الدرويش شاعر ذلك العصر واسماعيل افندى الخربتاوى من الادباء فخرج عليهم ثعبان ففزعوا منه فقال لهم الشيخ كيف تفزعون من ثعبان وأنتم فى حضرتى وكان الخدم قد عاجلوا الثعبان فقتلوه فقال له الشيخ الدرويش « ان الثعبان لم يخش جدك فى الغار بل لدغه وبقى أثر تلك اللدغة فيـــه وفى ذريته : فتنحنح الشيخ البكرى وضحك الحاضرون •

وقد تغـــالى الناس فى الاعتقـــاد حتى انتقل بهم ذلك الى التبرك بالحيوان فنسبوا الى السيد البدوى رضى الله عنه عجلا يدرورون به فى البلاد وفى عنقه أنواع من الجلاجل والاجراس فيجمعون له النذور ويدخلونه الدور للتبرك به والأخذ من شعره للاستشفاء من الأمراض والتحصن من العين ولو حضرهم السيد لفعل باصحاب العجل ما فعله موسى بأصحاب العجل •

ومن العجب أن علماءنا الاعـــلام يرون هـــذه البدع ويحضرونها ويأكلون فى ولائمها ولا ينهون عنها ولا ينبهون الحكومة عليها مع علمهم أن الحكومة تجيب ولكنها تحتاج الى من ينبهها كما حصل فى الدوسة وزفة الفار وأكل النار وضرب السلاح واللعب بالثعابين وغير ذلك من الأشياء التى يتعجب من رؤيتها بسطاء العامة وهى فى الحقيقة حرفة يتعيش منها كثير من الهنود وغير الهنود ممن لم يكونوا من المسلمين • وأولياء الله أجل قدرا وأسمى منزلة ان يحتاجوا فى اثبات ولايتهم الى عامى لا يقوم بالواجبات الشرعية يأكل ثعبانا لم يزك فيستدل بارتكاب المحرم وهو يأكل الثعابين مثلا على أمر قدسى جليل وهو اثبات الكرامة للولى • وأولياء الله لا يتحدون بالكرامات لأنهم ليســـوا بأنبياء وانمـــا تصـــدر عنهم

الكرامات عفوا • وقد لا يعلمون أوقاتها ولا أنواعها وانما يكرمهم الله بها عن غير علم وتحد منهم ولا شك انهم لا يرضون عن مريديهم ولا عمن كان على طريقتهم ان يقفوا فى أوقات معلومة من السنة فى تلك المواقف فيفعلوا افعالا من نوع واحـــد طول عمرهم كما يقف المشعوذون فينبغى على علمائنا الاعلام ان يحفظوا كرامة الاسلام بتنبيه الحكومة عـــلى محو ما من شأنه ان يحط من قدر هذا الدين المنزه عن السفاسف والترهات والخزعبلات والاباطيل والاضاليل وان يذبحوا عجل السيد كمـــا ذبح محمـــد بك لازاوغلى تلك العنز المذكورة فى تاريخ الجبرتى فقـــد كان جماعة ممن تجاسروا على الله أخذوا عنزا فالبسوها أنواعا مـــن الحلى وشرعوا يطوفون بها على بيوت الأمراء للتبرك بها ينسبون اليها كرامات يصادق بعضهم على بعض فى صدورها عنها فاعتقد الناس فيها وصاروا ينذرون لها النذور ويجلونها ويقبلونها ويتمسحون بها واتباعها يزيدون كل يوم للخيرات التى تدرها لهم فطلبها محمـــد بك لازاوغلى الى بيته ليتبرك بها أهله فاحضروها اليه بالطبول والدفوف والاعلام والرايات والغوغاء والضوضاء فاصعدها الخدم الى الحرم بالتجلة والاجلال ثم مد لاتباعها ومريديها مائدة فاكلوا ماشـــاؤا ولمـــا طال عليهم الانتظار التمسوا نزولها اليهم فأبلغهم لازاوغلى بك انها فى بطنهم ثم أمر بجلدهم وقال لهم لم اضربكم على التى فى بطونكم وانمـــا ضربتكم لتحذروا ان تجدوا لها اختا • وربما عدنا الى هذا الموضوع مرة أخرى •

٦ ـ كلمـــة
(فى الفلســفة)

* ابراهيم المويلحى

وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسـائر العلوم من الحشـو والغمـوض والزيادة والنقص واختفاء المتـون تحت كثافة الشروح والحواشى فاذا جرى ذكر الفلسفة بين الناس يوما عدوها علما من العلوم الزائدة التى يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون عامة الناس ثم اختلفوا فى ماهيتها فمنعهم من يراها اصلا يتفرع عنه الالحاد والزندقة • ومنهم من يظنها آلة عوجاء سفسطائية يقلب المشتغلون بها الحق باطلا حقا كما يشتهون بسعة احتيالهم فى صناعة البرهان والدليل •

وقد آن اليوم بعد ان نبهنا ذلك « المحزون » الذى يروم معالجة نفسه كما يروم غيره معالجة جسمه ان نذكر شيئا مجملا عن الحكمـة والفلسفة ونوضح ما غمض على الناس منها ونبين انها ليست فى شىء ممـا قرت عليه ظنون الناس وأوهامهم فيها وانها هى العلم الذى يقوم عليه أساس السعادة للانسان وجمال النظام فى العمران وانه علم عام لا يختص بفئة دون فئة وانه يمكن لكل انسان ان يتناوله ويأخذ باحكامه وأن فى نفس كل امرىء قبسا من الفلسفة وان لم يكن فيلسوفا كما ان فى نفس كل انسان شيئا من الشعر وان لم يكن شاعرا فنقول :

تنقسم الفلسفة الى ثلاثة علـوم علم الآلهيات وعلم الطبيعيات والرياضيات وعلم الأخلاق • أما علم الآلهيات عندنا فقد قام الدين به وأما علم الرياضيات والطبيعيات فهـو علم شائع معروف وأمـا علم

(*) مصباح الشرق ، العدد ١٥٠ ، السنة الرابعة ٣٠ ذى الحجة ١٣١٨ ١٩ ابريل ١٩٠١ ، ص ١ ، ٢ •

الأخلاق وهو سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة فانه أهم أقســـام الفلسفة لتوقف سعادة الانسان عليه فى حياته وموته • ومما يغنينا عن كثرة الاسهاب والشرح فى أن أهم ما يطلبه الانسان من الفلسفة هو الأخذ بمكارم الأخلاق محاسنها والتنزه عن مساويها ومقابحها سيرة ذاك الرجل العظيم الذى بلغ درجات الكمال الانســـانى بسياسة نفسه ورياضتها على الفضـــائل •

كان سقراط رجلا نحاتا للتماثيل فى أول عمـــره فبرع فى صناعته وفاق فيها الاقران ولمـــا بلغ الثلاثين أحس من نفسه ميلا للبحث عن الحقيقة ينشدها انى وجدها • ووجد عند بعض أغنياء أثينا مـــا يكفيه مؤنة السعى وراء رزقه فانقطع للبحث واوقف نفسه للدرس حتى بلغ فيه درجة عالية أرته ان مباحث الفلسفة بين العلماء فى زمانه لا تكفى لسعادة الانسان لانحصارها فى أوليات العلل والاسباب فصرف اجتهاده انى أن ينزل بالفلسفة من المجردات الى الموجودات التى يسهل عـــلى الانسان تناولها بحكم الطبيعة فقصر همه على علم الأخلاق الذى يرشد الناس الى سعادتهم فى معيشتهم بوقوفهم عند حدود الفطرة الغريزية فيهم فيظهر حب الحقيقة وحب الكفـــاف وانصراف النفس عن التطلع الى الثروة والمـــال واستفظاع الرذائل واستبشاع الاضـــاليل ومقت الظلم وحســـن الطاعة للشرائع الوطنية واحترام واجبات الانســـانية ورياضة النفس على التجلد وكف جماحها عن الاسترسال فى الشهوات مع الشجاعة والاقدام على ما يدفع المكروه ويدعو الى نجاة أبناء جنسهم•

وكان سقراط على خلاف الباحثين من أهل زمانه فى الفلسفة فان القول فى الفلسفة كان مقرونا عنده بالعمل فترك درسه ثلاث مرات ودخل جنديا فى صف الجند لدفع العدو عن بلاده حتى أعجب الناس بشجاعته كل الاعجاب • ومما يذكر له فى تلك المواقع التى شهدها انه رأى أحـــد الجند مثخنا بالجراح فى يد الاعداء فقاتل عنـــه حتى انتزعه منهم ولم

يكتف بهذا وحده فقد نزع عن صدره علامة الشرف التى نالها لاقدامه وحلى بها صدر الجريح ورآه أولى بها منه • ومما يذكر له أيضا فى هذا الباب انه بقى يقاتل فى الجيش حتى لم يبق فى ميدان القتال غيره مع القائد ووجد فى ساحة الحرب أحد القواد ساقطا عن جواده فحمله على كتفه حتى وضعه فى مأمن •

تلك درجته فى الصناعة وهذه رتبته فى الشجاعة واليك منزلته فى الثبات للدفاع عن الحق • فمن ذلك انه لما صار عضوا بالاقتراع فى مجلس الشيوخ ذهب مع أعضاء ذلك المجلس لرئاسة اجتماع عام من أهل أثينا عقدوه لمحاكمة بعض القواد الذين انتصروا فى موقعة بحرية انتصارا مذكورا ثم حالت العاصفة بينهم وبين دفن موتاهم وكانت شريعة اثينا تقضى بحكم الاعدام على كل من يغفل دفن الموتى فارادوا تطبيق هذه الحادثة على أحكام تلك الشريعة فقام سقراط وحده وأخذ جانب القواد يدافع عنهم ويظهر مافى هذا التطبيق من الظلم المبين والخطأ الفاحش وبلغ من اضاليل العامة وتهورهم فى الاصرار على معاقبة أولئك القواد بالأعدام انهم طلبوا ان يسرى حكم الاعدام على كل من يعارض من القضاة فى اجراء ذلك القانون فدفعت سقراط شجاعته الى الوقوف موقف المعارض وحيدا فى هذا الملتحم غير مبال بصياح العامة ولا ملتفت الى وعيدهم وظل يناضل بآرائه وينادى فيهم بقسوة هذا الحكم الذى يحط بعقل من يقول به ويلبسه ثوب الخزى والعار ويسمه بميسم نكران الجميل لمن كانوا سببا فى انقاذ الوطن ورد هجمات العدو عنه •

فقد رأينا الآن بهذه الواقعة فى سقراط مثال القاضى العادل وسيرينا فيه ما يأتى مثال الرجل الحر بين أهل وطنه : تغلب اهل اسبارطه على الاثينيين حتى أسقطوا فيهم حكومة الشورى وأقاموا لهم مكانها حكومة استبداد مؤلفة من ثلاثين حاكما انتخبوهم بين المترفين من أهل اثينا فكان من بوادر أعمالهم ان حظروا على سقراط درسه فى تربية

الشبان فلم يثن ذلك من عزمه بل قام فى وجه وعيدهم غير مبال بـه واستمر على تحريض الامة لاسترداد حريتها وثل عرش هؤلاء الظلمة ولم يرعه ما راعها من بسط يد الظالم فيها بالقتل والفتك حتى ثارت بفضل ثباته على أولئك الحكام فقتلت منهم من قتلت وطردت من طردت •

وكان الرجل فى اوان تخليه عن الاشتغال بالمسائل العـامة يعيش بين النـاس معيشة البسـاطة الفطرية قاصرا همه على تعليم الشـبان من أهـل اثينا وكان يقول اننى اخدم وطنى أعظم خدمة بتهذيب أولئك الشبان ثم أخذ على نفسه أن يهدم مارسـخ فى الاذهان من الاضـاليل والاباطيل التى تلحق العـار بالنوع الانسانى فما كان أجل منظره عند ما كنت تراه يخطب فى الناس فى انتقاد أعمـالهم وتقبيح أفعـالهم ودعوتهم الى التعلق بالفضيلة من طريق الوقوف عـلى الحقيقة وهو رجل فرد بين أمة ضالة لا جاه عنده ولا مال غير متطـلع الى منفعـة ولا متطلب لحسن صيت أو تشييد مجد • وقد قضى أيام حياته لا هم له الا القيام بهذا الغرض الجليل يسير فيه تارة بالحـدة وتارة بالاعتدال على حسب ما يمليه حسن النظر وصـواب الرأى فى المنفعة العـامة ولم يكن كامثاله من العلماء يتخذ له مكانا مخصوصا ووقتا معينا لاجتمـاع الطلبة عليـه بل كان يلقى دروس الفلسفة والحكمة فى الطرق والاسواق العـامة وكان ينتهز كل فرصـة فى طريقه لارشـاد القاضى فى وظيفته والصـانع فى حرفته والزارع فى حراثته وينزلهم منه عنـد النصـح والارشـاد منزلة الاخـوة فى الحنـو والاشـفاق لا منزلة الطلبة فى خضوعهم للاستفادة والتعلم وكان يستدرجهم فى الحديث فلا يشعرون الا وقد بسـطوا له ما تكنه صدورهم من خفايا سيرتهم ثم يتلقون عنه ما يغرس فيهم الاعتقاد بأن سعادة الحياة بـين كل الطبقـات لا تتم لأحد الا بأن يكون صالح الاعمال بين أهله صالح الاعمـال بين أصحابه صالح الاعمال بين أبناء جنسه • ومما كان يكرره على أسماع العـامة فى مواقفه بينهم قوله لهم : « اعلموا انكم اذا انتم رضيتم ان تكونوا عبيدا للشهوات فلا سبيل لكم الى الفضيلة التى تصعد بكم الى معارج السعادة

ولا تأثير لصوت الحكمة والعقل الا فى النفوس الحرة أو التى تجتهد فى الوصول الى حريتها من قيود الشهوات ولا وصول لذلك الا باطراح فضول العيش التى لا تحتاج اليها الفطرة الطبيعية فاذا علمتم ذلك من أنفسكم وادركتموه بطول التفكر انجلت عن أنفسكم ظلمات الجهل • وليست قوة الشهوات هى التى تتغلب على النفس ولكن جهل النفوس هو الذى يضعفها ويذلها ويغلها فى تلك القيود فعليكم بالتغلب على سلطانها الذى يكبره الجهل والوهم لتخرجوا من الظلمات الى النور وتذوقوا حلاوة الفضيلة التى فيها تمام السعادة » •

ثم انتهى أمر سقراط على ما ينتهى اليه أمر كل عالم فاضل بين نحبراء الجهل من أهل الاهواء والاغراض من الحسد له والحقد عليه والسعى وراء الايقاع به بالحيل والدسائس ليتخلصوا من نتائج نصحه وارشاده للعامة واجتهاده فى كشف الجهالات والضلالات عن أعينهم وليتركوهم على ما هم فيه ليسهل لهم التسلط عليهم وحفظ مكانتهم فيهم • وولوع ذوى الجهل بذوى الفضل قديم فى العالم فكادوا له ما كادوا وائتمروا به فاشاعوا عنه ما يستنكر لديهم ويستقبح من الاقوال والافعال حتى أثاروا طبقات الجهلاء على اعلان كراهته وبغضه وطلب محاكمته فتقدم أحد المفسدين منهم الى مجلس الشيوخ وادعى عليه أنه ينكر دينهم ولا يعترف بآلهتهم وانه يسعى جهده فى نشر أفكاره بين الفتيان والشبان لتضليلهم وافساد عقائدهم فانخدع مجلس الشيوخ بكثرة تلك المفتريات وخاف أعضاؤه على أنفسهم من ثوران العامة فطاوعوهم وحكموا عليه بالموت بتناول السم • ولولا خوف الاطالة لشرحنا حالته وهو يقضى على نفسه حكم المجلس وما كان يلقيه فى آخر ساعات عمره على تلامذته من الوعظ والارشاد كأحسن ما كان فى أيام حياته وله فى ساعته الاخيرة مقالته فى بقاء النفس • وجملة القول فيه أنه استقبل منيته وهو ساكن مطمئن باسم الثغر مستبشر النفس معجب ببراءته غير قابل اشارة من أشار عليه

بالفرار للتخلص من ذلك الحكم الجائر ولم يقبل لنفسه ان يكون للناس مثالا فى الخروج عن الانقياد لحكم القانون فى بلاده .

هذه سيرة رجل تنبئك كيف يصل الانسان فى رياضة أخلاقه الى أن يعيش سعيدا ويموت سعيدا فى مثل حالته بفضل الفلسفة والحكمة ولسنا نقول ان فى قدرة كل انسان أن يصل الى درجة سقراط فى الجمع بين القول والفعل على حسب أصول الفضيلة ــ تلك عليا مراتب الانبياء ــ وانما نقول ان كل من صرف ذهنه الى معرفة الحقائق وسبر الامور بمسبار الفلسفة اهتدى الى طريق السعادة فى الحياة والممات والاهتداء الى طريق الفضيلة وحده والتعلق بها ومعرفة الرذيلة واستقباحها نصف العمل للوصول الى السعادة المطلوبة . ولنا فى هذا الباب كلمة ثانية نقولها قبل الدخول فى الكلام على معالجة الاحزان والاشجان ان شاء الله .

٧ ــ المدنية فى أعلى مراتبها

* محمد المويلحى

مضى زمن طويل على أهل المشرق لا يسمعون فيه عن المدنية الحاضرة غير المدح والثناء ولا تجرى الاقلام فيها بينهم بغير التعظيم والاطراء ولا تشعر فيها نفوسهم بغير المحاسن والكمالات فانبهرت بها العقول وانخدعت القلوب وسلموا جميعا بفضل الغربيين عليهم وأقروا لهم بعلو المرتبة فوقهم ورأوا ان السعادة كل السعادة فى اقتفاء اثرهم واحتذاء مثالهم وصار السعيد منا من وقف امامهم موقف الصبى من المؤدب والتلميذ من المعلم ورفعناهم فوقنا درجات فتجاوزنا

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢١٢ ، السنة الخامسة ٦ ربيع الثانى ١٣٢٠ ، ١٢ يوليو ١٩٠٢ ، ص ١ ، ٢ .

بهم طبقة الأنس الى طبقة الجـــن فى قوة الابداع ودرجة الملائكة فى طهارة الأخلاق فتمت لهم السعادة علينا واستلموا مقاليد الرئاسة فينـــا واجتهدوا هم وأنصارهم بيننا فى اخفاء ما فى ذلك الكمال الكاذب من النقص وما فى خفايا تلك الزخارف الباطلة من الشرور وخرست الافواه وانكمشت الاقلام بيننا عن التنبيه على مفاسد مدنيتهم واضرارها وصار القـــائم فينا بذلك كمن يحاول تبديل السنة بالبدعة وتغيير الحق بالباطـــل وصار من لم يقم منا مقـــام المنذرين بسوء احوالنا وقبح أعمـــالنا ومقـــام المبشرين بصالح أعمالهم وحسن مآبهم كأنما ينطق بكلمة الكفر بعـــد الأيمان ويدعو الى ظلمة الشرك بعد نور الهدى وغفلنـــا عن اســـتماع ما يقوله أصحاب العقول والبصائر وأهل البحث والتدقيق من الغربيين أنفسهم فى وصف الفســـاد والهلاك والخراب والدمار الذى تجـــرهم اليـــه مدنيتهم وتنتهى به حضـــارتهم • فكان من أجـــل وظائف الكاتب الذى يخلص فى الخدمة للأمم الشرقية وينصح لها ان لا يمل ولا يسأم ابدا من ترديد القـــول وتكرير الكلام فى بيان تلك لمضار ونقل ما يكتبه العقلاء من أهل الغرب عنها لكشف المقابح وتوضيح المفاســـد كما لـــم يمل دعاة المدنية بيننا الى اليوم من تزويق الاباطيل وتمويه الاضاليل فى تلك المدنية التى يتأذى منهـــا عقلاء الغربيين مع انطباقها على عاداتهم وأخلاقهم فكيف بأذاها فينا مـــع منافرتها لأرضنا وديارنا ومخالفتهـــا للمألوف لدينا والمعروف عندنا ونأتى اليـــوم لحضرات القـــراء بشىء مما يكتبه فضـــلاء الغربيين عن مدنية أهـــل امريكا التى هى الجـــوهرة اليتيمة فى تاج المدنية وواســـطة العقـــد فى جيد الحضارة ولباب الأمم فى هـــذا العمران وهى الأمة الخالصة التى لم يعلق بها شىء من إدران التاريخ القديم ولم يلصق بها وضر من أوضار القرون الغابرة بل ولدت على فراش المدنية ونشأت فى حضن الحضـــارة وقامت فيهـــا المدنيـــة الغربية مقـــام كتاب افلاطون فى تأليف جمهوريته وقامت مدينة نيويورك

فيها مقام « المدينة الفاضلة » . كتب أحد الباحثين المحققين من علية الكتبة لدى الفرنسويين فى أكبر جريدة من جرائد باريس ما نبسطه عليك :

« يوجد فى مدينة نيويورك شركة كبيرة اسمها « تمانى » من أعظم الشركات رواجا وأوسعها ربحا تتصرف فى رأس مال عظيم وتوزع على المساهمين فيها ارباحا طائلة لكنها شركة غريبة فى بابها عجيبة فى صفاتها لا يوجد فى انحاء العالم كله ما يشابهها من جنسها فهى لا تشتغل بالمضاربات فى البورصة ولا بالسكك الحديدية ولا بالمعادن ولا بما يماثل ذلك من أبواب المنافع بل لها تجارة يفوق ربحها سائر المتاجر فانها تتجر بجميع وظائف الحكومة ومبانيها ومجالسها بلدية وغير بلدية فى نيويورك وهى تباشر ذلك جهارا آمنة مطمئنة بمرأى من الجميع ومسمع منهم . واذا أردت أن تعرف طرفا من أعمال تلك الشركة فما عليك الا أن تتصور جماعة متعاقدين على ابتياع أغلبية الآراء فى الانتخاب ليصلوا بطريقة شرعية الى استلام أزمة الاعمال فى الحكومة — وأن تتصور هذه الفئة قد استولت بحق الانتخاب الشرعى على فروع الحكومة من المحافظة الى الشرطة الى المجلس البلدى الى مجلس التجارة الى مجالس الأحكام الى مجالس العمد الى جميع ما يتصل بالسيطرة على الاهالى والحكم فيهم وكل ما يتعلق بشؤن الادارة من حاكم المدينة الى كناسها ومن رئيس الشرطة الى أصغر جندى فيها . ولا تنيل الجمعية وظيفة من هذه الوظائف الا لمن يساوم فيها ويزيد فى ثمنها لا لمن يستحقها بالاهلية والاستعداد — وأن تتصور انك لا تنال مثلا وظيفة ضابط فى الشرطة أو قاض فى المحاكم الا بعد ان تدفع للجمعية مبلغا يتفاوت بين أربعة آلاف وستة آلاف جنيه لك ان تسترده من سكان القسم وتتقاضاه من المحامين — وأن تتصور ان هذه الجمعية وصلت من بيع الوظائف الى درجة ثروة عظيمة تنقسم الى مبالغ احتياطية ومبالغ للاستهلاك ومبالغ لتوزيع الربح على السهم على ترتيب بنك الكريدى ليونيه أو بنك فرنسا مثلا — اذا تصورت

كل هذا فقد وقفت على بعض شيء من تعريف تلك الجمعية .

« وأهل الشرطة فى هذه الجمعية هم عمادها ورأس مالها كما ترى الاوراق المالية عماد تلك البنوكة ورأس مالها وهم يستلبون الاموال من جميع طبقات الناس فيأخذونها ممن يريدون فتح أماكن الفاحشة والميسر ومن أولئك الذين لا يريدون فتح أماكن الفاحشة والميسر ومن أولئك الذين لا يريدون اغلاقها ويأخذونها من ارباب الحانات كما يأخذونها من جمعيات مقاومة المسكرات الذين يراقبون تلك الحانات لمصادرتها ومن ارباب الحانات فى مقابلة تنبيههم عن أوقات تفتيش الجمعيات عليهم ويأخذونها من الاغنياء لحمايتهم من الفقراء ومن الفقراء لاعانتهم على الأغنياء وهو نصب واحتيال ألبسوه لباس الضرائب الشرعية وأنزلوه منزلة المكوس الاميرية .

« وأعجب امر هذه الجمعية ما وقعت فيه اليوم من الخصام والنزاع فقد حدث ما لم يسمع بمثله عندها فى الانتخابات الاخيرة وهو ان الاهالى انتخبوا فى جمهور النواب عنهم ستة رجال من أهل العفة قاضيين وأربعة ضباط للشرطة فما استلم هؤلاء النفر وظائفهم حتى أعلنوا بأن سيرتهم فيها ستكون مطابقة للقوانين موافقة للعدالة لا يقبلون رشوة ولا يختلسون درهما مما فى أيديهم من مال الحكومة فكان ذلك عند الجمعية من أقبح ما جاءت به الانتخابات مخالفا للعادة . وفى الواقع فان أهل نيويورك رأوا ما لم يكونوا يرونه من قبل من اغلاق الشرطة بعض الحانات فى يوم الاحد على مقتضى ما يحكم به القانون ورأوا بعض رجال الشرطة كذلك يقتحمون أمكنة الميسر لمصادرتها وابطالها ورأوا ما هو أبلغ من ذلك فى سيرة العدالة وهو القاء القبض على المسمى « بيسير » أحد ضباط الشرطة لارتكابه الرشوة والاحتيال فقامت قيامة الجمعية عند ذلك ووقعت الانظار على حادثه مدهشة لا يبلغ كنهها الخيال ولا تدخل فى التصور ذلك ان جميع الموظفين فى نيويورك من أهل الشرطة وأهل القضاء وأهل المجالس البلدية هبوا هبة واحدة لانقاذ

ذلك الضابط وقرروا ان لا يتركوا وسيلة فى سبيل هذا الغرض الا فعلوها ولو بارتكاب الجريمة فاضطر أولئك الاشخاص الستة الصادقون فى خدمتهم الى تجنيد بعض الاهالى وتقليدهم وظائف الشرطة ليدفعوا أهل الشرطة ويمنعوهم من استخلاص المجرم من وجه العدالة ثم أقاموا حرسا خاصا على حجرة القضاة يوم الحكم عليه ليحفظهم من أيدى المعتدين عليهم من موظفى الشرطة كما انهم احاطوا جماعة الشهود بحرس آخر يحرسهم فى طريقهم الى المحكمة وذهبوا بهم فى الخفاء ليلا اليها ليبيتوا فيها ليلتهم آمنين ويؤدوا من الغد شهادتهم حذرا عليهم أن يغتالهم رجال الشرطة فى بيوتهم • ومع كل هذا الاحتراس وهذه الحيطة فان المتعصبين من أهل الحكومة تمكنوا من اختطاف الشاهد الأول فى القضية أثناء الطريق من بيته الى المحكمة ولم يقف له أحد بعد ذلك على أثر وليس من المظنون أن يظهر له خبر كما تشير اليه احدى جرائد نيويورك فى قولها : « اذا أصبحت السرقة قاعدة من قواعد الموظفين فى الحكومة فلا بدع أن يستعينوا على أغراضهم بارتكاب القتل والاغتيال » •

«وليس الغرض من ذكر هذه الشركة وشرح حالها فى سوء أفعالها ان نفتخر بحكومتنا ونتباهى بنظامنا ولا أنها عبرة نعتبر بها ولا ان ننبه على العلة لاجتناب ما يماثلها فينا بل غرضنا ان نبسط للعالم ما تضمنته افعالها من الدلائل القبيحة والأعراض الفظيعة فى تاريخ هذا العصر الحاضر •

هذا هو الجيل من الناس الذى تراه كالشاب الغرنيق فى مقتبل عمره وعنفوان شبابه يغلى فى عروقه دم الفتوة وتلتهب فى جسمه حدة الصبا قد جرى فى ميدان التقدم والمدنية شوطا بعيدا وبلغ فيها شأوا رفيعا حتى سبق بقية الامم التى وجدت قبله ولم ير منذ نشأته فى ادوار حياته الاحسن الحال وسعادة العيش ــ دع ما كان من تذمر تلك العجوز (يعنى انكلترا) منه وحقدها عليه حينا من الاحيان ــ ولم ير

من سائر العالم الاقلوبا راضية ووجوها باسمه ولم يرث قط شيئا من اضغان القرون واحقاد التاريخ التى تفسد اخلاق الأمم وتؤذى طباعها وكان الاقدام فى سيرته ملازما له والنجاح فى كل حال قرب يده ــ هذا الجيل كان ينبغى له أن يكون متمتعا بتمام الصحة وكمال القوة وجمال الشبوبية ولكنه قد أصبح جسمه متأكلا وداؤه عضالا وظهرت عليه تلك القرحة الخبيثة قرحة الرشوة فأفسدت دمه وشوشت بنيته وشوهت خلقته وأصبح هذا الجيل الذى ولد بالأمس متشبعا بجراثيم الأمراض القتالة المنبثة فى الامم التى هرمت وشاخت ووقعت فى دور الانحطاط والانحلال وأصبح لا اله له الا الدينار ولا رب الا الدرهم ولم يبق فى اعتباره من عظماء الرجال واشرافهم عنده الا طبقة واحدة هم أصحاب المليارات والملايين ولو كانوا من أهل الغارة وقطاع الطريق ولم يكن عنده من طبقة عالية رفيعة الا اللصوص والسراق الذين يصبحون أصحاب المليارات والملايين وقد ترك عاصمة بلاده التى هى ثالثة العواصم فى العالم فخامة وجلالة فى قبضة منسر من اللصوص وقطاع الطريق يضعون مناصب العدالة ووظائف القضاء فى المزايدة ليغتنمها المغالى بها ويعهد بادارة المحافظة على الارواح والاموال فى بلاده الى المساوم الأرجح ويسلم زمام اموره كلها الى يد شركة يكفى النطق باسمها للدلالة على أعظم القبائح وأفظع المخزيات فى هذا العالم فشركة « تمانى » هى القيصر الذى يديرا أكبر بلدة فى أكبر جمهورية فى العالم . فاذا كانت هذه عقبى المدنية والحرية التى يجب أن ينتشر نورها على العالم فما اسوأ حظ العالم وما اقبح الحرية والمدنية » انتهى

ستيفان لوزان

* * *

٨ ــ جــذر العاقبــة

* محمــد المــويلحي

ليس المصري بأضعف من الأجنبي جســما ولا بأصغر منه نفســا ولا بأدنى منه تكوينا أو أوهى تركيبا ولم يخــلق الله الأجنبي من طينة والوطني من أخرى بل كلاهما متساويان في الجسم والعقل وليس الاجنبي المهاجــر من بلاده الى الديار المصرية بأعظم عصبية واشــد جنــدا من الوطني في دياره بين اقوامه • فما الذي تراه كف ايدي المصريين عــن مقابلة الأجانب بافعالهم في بلادهم وجعلهم المجني عليهم في كل حــال لا الجانبين على غيرهم وما الذي اذل رقابهم وذلل قيادهم فقبلت نفوسهم ساكنة هادئة أن يفتك الأجانب بهم فيسفكوا دماءهم ويسلبوا أموالهم في عرض البلاد وطولها ازمانا وادهارا ولم يبلغ بالمصريين الانحطاط في درجات الانسانية الى درجة انهم يعجــزون عن الدفــع عن الحمى والذود عن الحرم بل نرى فيهم من ذلك ما لا يفضلهم فيه سواهم من بقية الأمم وحوادث التعدي على بعضهم بعضا نراها أكثر عددا من بعض البلدان الأخرى • ما وصــل بالمصريين الى هذه الحــالة في الأزمــان السالفة الا رهبــة حكامهم من الأجانب ووضعهم لهم فوق رؤوسهم اجلالا واعزازا وتعظيمهم في عيون الأهالي ومبالغتهم في المحاباة لهم على أي حالة كانوا عليهــا يتوارثون ذلك بينهم صغيرا عن كبير عــلى التسلسل حتى يتصل سندهم بالحاكم الأعلى الذي استولى الاجانب على رأسه بالاوهام والاضاليل وسلم لهم قياده بزخرف الآمال ومعســول الامانى فكان المصرى الذي ينظــر الى حاكمه بعين الخضوع والخشوع ويكبره في صدره اكبار العبــد لمولاه يتحين منه البطش في كل لحظــة ويترقب منه الفتك في كل برهة اذا رأى هــذا الحاكم بعينه واقفــا مثل موقفه من الذل والانكماش وحسن الطــاعة والانقيــاد امام الاجنبي

(*) مصباح الشرق العدد ١٧٣ ،السنة الرابعة ، ١٤ جمادى الثاني ١٣١٩ ، ٢٧ سبتمبر ١٩٠١ ، ص ١ ، ٢ .

ارتفع الاجنبى فى عين المصرى وعده فى نفسه أقوى من حاكمه سلطة وأشد بأسا ورسخ ذلك فى الاذهان بمضى السنين والاعوام فتكونت به للأجنبى سطوة وصولة على المصريين مع قلة عدده وما تورثه الغربة والبعد عن قومه ودياره من الضعف والوهن .

هذا هو السبب الصحيح فى اتساع سطوة الاجنبى على المصرى وتعاليه عليه لا أنه يحميه منه فضل قوته فى نفسه وشرف نسبته الى دولته فان العامة لا تدرك قوى الدول فى ذاتها بل ترى الاجنبى فى عين المصرى واحدا على السواء سواء كان انتسابه الى دولة تعد جيوشها بالملايين أو مملكة لا يبلغ عدد جيشها عدد قرية من قرى الارياف فرهبة المصرى من الاجنبى اذا وخشيته منه ناشئة عن ظروف وأحوال تدوم بدوامها وتزول بزوالها . ومن خطل الرأى وسوء التدبير ان يبقى الامر على ما كان عليه من استبداد الاجنبى بالمصرى بعد أن أصبح المصرى اليوم غيره بالامس عارفا بحقوقه عالما بما له وما عليه متساويا فى موقف القضاء بكل أمير وكبير وأصبح الذى كان يدور حول الساقية ويجرى وراء الماشية متخرجا من المدارس فى أعلى العلوم وأرقى المباحث العقلية قد درس عادات الغربيين وأخلاقهم وخالطهم وعاشرهم فى دياره وديارهم فهو لا يرى بينه وبينهم فرقا فى الدرجة ولا اختلافا فى الحقوق سيما وهو يشاهد اليوم ان بين رجال حكومته التى كانت السبب فى تذليله للاجانب رجالا يديرون امورها هم من أرفع الاجانب منزلة وقدرا واعظمهم قوة وجاها لا يأتون مع الاهالى ما يخالف احكام القانون ويغاير نظام الحقوق بل شاهدنا ان بعض عامة الاهالى يجترؤن بالتعدى على بعض الضباط الذين يمثلون قوة الجيش البريتانى فتحكم عليهم المحاكم بما لا يزيد عما تحكم به عليهم فى تعديهم على أحقر العامة وأدنى الرعية . فبأى وجه يرى المصرى حقا للاجنبى فى التفاضل عليه ببلاده والامتياز عنه بالخروج عن حكم قانونه وليس له من حق سوى ما يكون من رعاية الجوار وحرمة الضيف مادام محافظا على حسن العشرة ولطف المعاملة . فاذا بقى الاجانب على

حالهم القديمة من الامتيـــاز على الأهـــالى والتســـلط عليهم مع تغيير الحـــال بالمصريين وانتقالهم من استبداد الازمان الســـالفة الى عدالة العصر الحاضر ومع دوام انتباههم لحفظ حقوقهم ووقوفهم تمام الوقوف على ما لهم وما عليهم من الواجبات فان الامر لابد ان ينتهى الى احدى النتيجتين : اما أنهم يذودون أيدى الأجانب عن حقوقهم بأيديهم حيث لا دافع يدفعهم عنهم من جانب حكومتهم والمصريون أبعد الناس عـــن ذلك لحسن معاشرتهم ووداعة اخلاقهم وأما أن يصبروا عـــلى المضض ويتحملوا الاذى ويقبلوا الظلم وتتسع صـــدورهم لكظم الغيظ وقلوبهم لكمون الاضغان فتبقى النار كامنة حتى يأتيها من الحـــوادث ما يلهب ضرامها فلا تملك الحكومة أمرها عند ذلك ولا تطيق ضبط النفوس وتقييد الأفكار والتســـلط على ضمائر الصدور واسرار القلوب ولا تقدر على دفع مكروه الحوادث عند أول وهلة فى حال المفاجأة •

فكان الواجب على أهـــل السياسة من الاجانب ان يلاحظوا تغيير الاحوال وتبديل الأمور فيراعوا احكام الزمان ومجرى الحوادث لا أنهم يغفلون عن ذلك كله ويطلقـــون السراح لرعاياهم فيمكثون فى العهـــد الحاضر على ما كانوا عليـــه فى العهد الماضى من التطاول على الأهـــالى والتعدى عليهم فى أخص ما يختصون به وأعز ما يعـــز عليهم • لكننـــا نراهم والأسف على ذلك عظيم قـــد ازدادوا اليوم تمـــاديا فى بغيهم وعدوانهم وصاروا يقدمون على ما لم يكونوا يتعرضـــون له من قبـــل الا شيئا قليلا كأنهم احسوا بضعف جانبهم وانقضاء رهبة الحكام منهم وزوال مســـاعدتهم لهم فأخذوا يظهرون من الضعف عنفا ويولدون من الوهن قوة وصرنا نرى الحوادث تتعاقب بيننا كأشد ما كانت عليه يوم كان الأجنبى صاحب السطوة والصولة على الاهالى باشتراك الحكام معه فى استبدادهم بالرعية وانتصارهم له فى كل حال • فهذه حادثة الهماميل بالامس تشهد بتهور الأجانب واستخفافهم بالحكومة وقوانينها وعـــدم اكتراثهم بالاهالى وحقوقهم خشقوا بطن الشرطى الـــذى يمثل سلطة الحكومة بين الناس • وامامنا اليوم حادثة النمسرى الذى أهان المؤذن

ورجمه بالحجارة وهدده باطلاق الرصاص ان هو استمر فى أذانه الذى هو من أعظم شعائر الله وعدنا الى مثل عهد المشركين فى أول نشأة الاسلام وضعف بدأته من الاستهانة بدين الله والتعرض لاحياء شعائره بعد أن قهر الدين الاسلامى العالم أجمع ودوخ الأرض ثلاثة عشر قرنا وبعد أن أصبح المتدينون به ثلاثمائة مليون تمتزج قلوبهم به امتزاج الارواح بالاجسام ، وهذه حادثة المبارزة بين أيدينا اذ قامت قائمة بعض الأجانب على احدى الجرائد الشهيرة يتهمونها بسوء التعرض لهم وقصد الاهانة والاستخفاف بهم عندما قامت تقابل جرائدهم بمثل مطاعنها على المصريين فقام فريق منهم يطلب محرر الجريدة لميدان النزال ومضمار الطعان وانصرف فريق آخر الى جانب القنصل يدفعه الى مخابرة الحكومة فى تأديب صاحب الجريدة وكفه عن نشر ما يعدونه مهينا لهم والضغط عليه ليسترد اقواله التى قالها فيهم الى غير ذلك من الحوادث التى تخشى عاقبتها ويحذر من نتيجتها .

ولا يخفى رجال الحكومة ان ادارة الحكومات لاتقتصر على تأدية الأمور الحاضرة فيها بل لا بد للقابضين على زمام الامور من البحث الدائم فى تقلب الأحوال وتحول الظروف وتأثير الوقائع فى النفوس واتجاه حركة الافكار فى سريانها لتكون على بينة من مجرى الحوادث تدفع شدتها وتعتد لها عدتها وتأخذ فى رفع أسباب المكروه وتوقى المحذور ولما كانت الجرائد من الوسائط التى يستعين بها رجال السياسة للاهتداء فى مباحثهم على حقائق الأمور وجلية الأحوال فى الامة فقد كررنا القول مرارا فى بيان مضار الامتيازات التى تلحق بالحكومة وبالاهالى وبأصحابها من الأجانب انفسهم . اما ضررها بالحكومة فظاهر من تعطيل الكثير من مشروعاتها فى اصلاح احوالها وفى وقوفها سدا امام ما يقتضيه نظام الحكومات فهى تحمى القاتل والسارق من العقاب والضارب من الجزاء الى العاهرة التى تنشر على الناس امراضها وتمتنع بها عن اجراء المراقبة عليها الى المقامر الذى يغمس يده فى اموال الاهالى ويبتلع ثروة البلاد . واما ضررها بالاهالى فهو أوضح من ان يوضح وأقل ما فيه

انك ترى الرجل الدنيء السافل الذى كان من أكبر المذنبين المجرمين فى وطنه قد خرج منه طريدا شريدا فينزل اميرا على رؤوس أهل الخاصة والعامة من الأمة المصرية يصرف فى رقابهم ويمرح فى أموالهم • وأما ضررها بالأجانب فانها توغر صدور المصريين بكثرة التعدى عليهم واجتماء الأجانب بحمايتها وتولد ما تولده من الضغائن فى القلوب • والأجانب فى حاجة الى حسن المعاشرة معهم ودوام المجاملة بينهم • وقد بينا فى آخر الأمر ان تفسير معاهدة الامتيازات الذى فسرته الدولة للدول الأجنبية واقرتها عليه لا يخرج الأجنبى عن حكم القانون فى البلاد العثمانية كما هو الواقع فيها الآن ولا يدع محاكمته لوكيل دولته كما هو الحاصل فى مصر وأن الحكومة المصرية لا ترتبط بالمعاهدات السياسية على حدة بل هى تابعة للدولة العلية على كل حال وان من أسهل الامور على الحكومة المصرية ان تبادر الى مخابرة الدول فى هذا الشأن ولو لم تكن على ثقة من اجابة طلبها فى الحال فان مجرد فتح باب المخابرة والاستشهاد بما مضى من الحوادث وما يأتى بعدها مما يمهد سبيل القبول فى المستقبل ولا يليق بالحكومة ان تبقى على سكونها الحاضر فى هذا الشأن بعد هذه الوقائع التى عددناها وبعد ان انذرها فضيلة شيخ الجامع الأزهر بسوء العاقبة ان استمرت الحال على ما هى عليه ولم تضع حدا للاجانب لدفع مثل حادثة النمسوى مع المؤذن بما جاء فى كتابه عنها الى سعادة وكيل الداخلية حيث قال :

« وحيث ما أتاه هذا النمسوى يعد اهانة للدين حتى يقال انه اقتدى به • ولا يخفى ان كل متدين بدين يغار عليه مهما كان معتقده فيرتكب صعاب الامور وهو عالم بها انتصارا لدينه خصوصا والبلاد اسلامية ووقوع مثل ذلك فيها يوغر الصدور فنحول انظار سعادتكم الى تلافى هذا الامر بمعاقبة المعتدى بواسطة قنصليته بما يكون رادعا له وزاجرا لغيره ومزيلا لما كمن فى الصدور من جراء هذا الحادث المؤلم أولى من الترك والتغاضى ووقوع ما لا تحمد عاقبته ثم تفضلوا باخطارنا بما يتم أفندم » انتهى •

ولم يبق على الأجانب بعد ذلك إلا ان يدخلوا الاذان تحت حكم المادة ٣٤٦ من قانون العقوبات بعلة أنه من اللغط المقلق للراحة ليلا وتصبح المساجد من المحلات المقلقة للراحة العمومية .

* * *

٩ ــ كلمة فى التاريخ

(١)

* محمد المويلحى

كتب الينا أحد الفضلاء المدققين يذكر ما عليه أهل العلم والدرس بيننا من قلة العناية وكثرة التهاون بفن التاريخ حتى كاديندثر اسمه ويندرس رسمه وصار لا ينزله الجانب الأعظم منهم الا منزلة الاقاصيص والاساطير التى لا فائدة منها غير ترويج الخاطر وتسلية النفس على نحو ما تقصه الحواضن من الحكايات فى تعليل الاطفال ليسكنوا عليها ويغشاهم النعاس بها ــ وان أقصى جهد العناية فى المدارس المصرية من أولها الى آخرها ومن عاليها الى سافلها هو الاقتصار على أن يحيط الطلاب ببعض الوقائع المشهورة من التاريخ الغربى وأهم المطلوب منهم فيها ان يذكروا تواريخ وقوعها وسنى حدوثها ــ وأن الناس قد نسوا الفوائد المتعددة التى تعود على الامة من درس هذا الفن وغفلوا شر غفلة عن استنباط المنافع المختلفة التى يهدينا اليها التاريخ بقياس الحوادث بالحوادث ــ وأن من خير ما تبسط الجرائد القول فيه وتشغل أفكار القراء به توضيح المزايا التى يمتاز بها هذا الفن فى تربية الاشخاص وتهذيبهم وترقية حال الامة فى مراقى صلاحها وفلاحها حتى تقبل النفوس على العناية به وتنصرف الافكار الى القول فيه وتشغل أفكار القراء به وتنصرف الافكار الى الاشتغال

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢١٢ ، السنة الخامسة ٦ ربيع الثانى ١٣٢٠ ؛ ١٢ يوليو ١٩٠٢ ، ص ١ ، ٢ .

والبحث فيه نابذة لزعم الزاعمين اليوم بيننا ان الالتفات الى ماضى الحوادث وسالف الاعصار والرجوع الى ذكر اخبار السلف وسيرة المتقدمين ضرب من ضروب العبث لاطائل تحته عند الامم الشرقية غير التعلل بذكرى المجد الزائل وسوء التفاخر بالاثر العافى والوقوف مواقف الشعراء بين النؤى والاحجار يندبون الديار وساكنيها ويذكرون أيام الصبا واللهو فيها • فبادرنا الى تلبية دعوته والاخذ باشارته • ونبدأ اليوم بذكر شىء من طريق الاجمال عن رفعة مقام هذا الفن الجليل بين سائر العلوم والفنون وجلالة أثره فى وجود الامم واهتدائها به فى سبيل الحضارة والعمران على الوجه الانفع والنهج الاقوم • فمما يقال فى ذلك :

التاريخ سجل الحوادث وخزانة التجارب ومرآة القياس وهو بعبارة أعم وأوفى السراج الوهاج الذى تتناوله ايدى الاخلاف من من أيدى الاسلاف ليهتدوا بضوء الزمن الماضى الى سواء السبيل فى الزمن الحاضر ويكشفوا به بعض ظلمات الزمن القادم •

هذا والطبيعة البشرية واحدة فى كل زمان فلا تكاد تختلف الحوادث الصادرة عنها فى الماضى عن الحاضر الا باختلاف الظروف وهذا معنى قولهم « **ليس تحت الشمس أمر جديد** » **والافراد والامم فى ذلك على سبيل واحد فاذا طرأ على الانسان حادث وكان ذا اطلاع على التاريخ عرضها على سجل حوادثه وخزانة تجاربه فلابد أن يعرض له فيه ما يماثلها أو ماهو قريب منها أو ماهو متفق معها فى النوع وان كان مختلفا فى الشكل فيتفرغ حينئذ لحكم القياس فلا يلبث أن يخرج منه ما تستقيم معه القضية وتلوح له النتيجة التى يستطلعها فى المستقبل بضوء النتيجة التى سبقت فى الماضى •**

ولذلك كان من الواجب على كل من يشتغل بالتاريخ والنظر فى الحوادث والاخبار الغابرة أن يجرى فى عمله على طريقة أهل

العـــلوم المبنية على التجربة والقياس وأن يتبع قواعدهم فيها فان فن التاريخ داخل فى عداد تلك العلوم •

وهذه العلوم تقوم على استجماع وقائع معينة ثابتة تدرك بالنظر واستقراء أحوالها وآثارها ويكون فيها من التماثل والتشابه ســـواء كان فى حالة انفرادها أو اجتماعها ما يسهل معه استنتاج حـــكم عام فيهـــا تؤسس منه قواعدها كما انه يستخرج من خواصها وكيفيات تناســـبها واشتراكها صفات مطردة تستنتج منها قوانين محددة •

وهكذا التاريخ تستنتج له قواعد وقوانين على هـــذا الاسلوب تقوم على الاعمال الماضية التى تصدر من الانسان من حيث هو فـــرد من أفراد البشر ومن الناس من حيث هم أمة من الامم • ولما كانت هذه الاعمال المشـــاهدة الثابتة واقعة فى أزمان ماضية عنا ولا يمـــكن اثباتها من طريق النظر كان اثباتها من طريق الاستقراء والتأويل وما خلفتـــه من آثار اليد والفكر • فهو يستكشف من أثناء الحـــوادث المتعـــددة والوقائع المختلفة أمورا متشابهة متضاهية يقسمها الى فصـــائل وشعب يمكن منها استخراج أحكام عامة ويجد فى سلسلة الوقائع البشرية من وجوه التناسب والاشتراك والروابط صفات وخواص يلزم من تتابعها واطرادها الاعتقاد بأن كثيرا من الوقائع المنفردة راجعـــة الى أسباب عامة كأنها جارية على أحكام قوانين ثابتة • وبالجملة فان علم التاريخ متفق مع بقية العلوم المبنية على النظر والقياس ويتبع قاعدتهـــا من جهة البحث والمنطق المعول عليهما فى اكتشاف قواعدها •

وهذه العلوم تنقسم الى قسمين قسم حسى وقسم معنوى فالقسم الحسى مثل علم الحيوانات وعلم النباتات والقســـم المعنوى مثـــل علم الاخلاق وعلم النفس وقواها وعلم التاريخ الذى نحن بصدده • وتمتاز عـــلوم القسم الاول عن القسم الثانى بغـــزارة موادها وكثرة ابحاثها ووفرة نتائجها وتعـــدد قوانينها لان ما تشـــتغل به من الوقائع

الحاضرة وما تبحث فيه من الموجودات يسهل معه صحة النظر ودقة القياس واستقامة الاستنتاج وتعميم الاحكام • ولكن الامر أصعب مراسا فى علوم القسم الثانى ولذلك فهى بطيئة فى التقدم شديدة العناء فى الاستنتاج وهذا ما يتجلى لك فى علم التاريخ باوضح شكل فان الحوادث التى يشتغل بدارستها ليست الا عبارة عن أعمال متفرقة أو متجمعة من أعمال الافراد يصعب الوقوف عليها تماما وتحديدها تحديدا قاطعا وما ذلك الا لانها حوادث ماضية قد زالت عنا وأنقضت ولأنها نتيجة كثير من العوامل المختلفة والمؤثرات المتعددة التى لا يمكن القطع بمعرفتها على حقائقها ولا استئناف النظر فها من طريق التجربة الصناعية ليتيسر الوقوف عليها والتحقق منها بل كثيرا ما تتبدى الوقائع فى اشكال خاصة بها لا يتيسر معها استخلاص القياس المطرد • وبالجملة فان القواعد والقوانين فى علم التاريخ وفى بقية العلوم من القسم الثانى لا تماثل بقية القوانين فى العلوم الاخرى من حيث الدقة والاستقامة والاطلاق لانها مستخرجة من أعمال تضاربت فيها الاهواء واختلفت المقاصد وتباينت الغايات •

وهناك أمر آخر يمتاز به علم التاريخ عن بقية تلك تلك العلوم وهو انه متى وصل المؤرخ الى تصوير حالة أمة من الامم الغابرة فى أمورها العامة والخاصة من طريق استقراء الوقائع وتأليف الحوادث وترتيب أوضاعها فانه لا يكتفى بالوقوف عند هذا الحد بل لا بد أن يتعداه الى الحكم بنفسه على أعمال تلك الامم الماضية والى استخراج الموعظة الحسنة والنصيحة العامة لينتفع بها قومه ويسلكوا بها سبل الرشاد كما أن هذه الاعمال البشرية التى هى موضوع البحث فى علم التاريخ تختلف فى الظواهر عن بقية العلوم لان لتصرف الارادة جانبا عظيما فى تكوينها وللحرية فيها نصيبا معلوما تمتاز بها أعمال الانسان عن غيرها • ومن القواعد الثابتة فى علم النفس ان كل من نظر فى عمل من أعمال غيره تراه دائما مدفوعا بغريزته الى الحكم على هذا العمل بحسب ما يجرى عليه خلقه وسيرته وبحسب ما يعتبره نافعا أو ضارا

لديه وبحسب اختلاف مذاهبه وآرائه السياسية أو الاجتماعية وبحسب انقيـاده للروابط الجنسـية والدينية ولا يخفى مافى هـذا من التحيز والتحزب الذى يفسد من عمـل المؤرخ اذا اندفـع به الى التحـامل والتعصب والانتصار لما يميل اليـه هواه وربما حمله ذلك على أن لا يورد من تفاصيل الحوادث الا ما كان فى جانب التأييد لقوله والتثبيت لحجته ولكنه مع ذلك لا يخلو عمله من الانتفاع به فى الحـكم على ما يسرده علينا من الوقائع لان مجرد ذكر الحادثة وسرد الرواية مما ينتفـع به فى هذا الباب على كل حال . ومن خواص المؤرخ أيضـا أن يضيف الى عمله العلمى شيئا من أعمال علماء الاخلاق وعلمـاء النفس ورجـال السياسة والتدبير فلا يكتفى بالصدق فى رواية الوقائع والتثبت من سرد الحوادث بل يخـرج الى البحث فيها والحكم عليها بمقتضى ما يـكون لديه من قواعد العلوم الادبية الاخرى فيبين وجوه الفوائد ويوضحها لانتفاع الاجيال القادمة من درس أعمال الامم الغابرة .

وهنا يجب على المؤرخ ان لا يخلط فى عمله بين هذين القسـمين قسم الحكاية والرواية وقسم الرأى والحكم بل يفصـل بينهما ليتمكن المطلع على التاريخ من التفريق بين الجانب الفلسفى الذى تتجلى فيـه آراء المؤرخ وأفكاره الشخصية وبين الجانب العلمى الخاص بجمـع الوقائع وسردها وبسط الحوادث وترتيبها .

فقد ظهر لك من جميع ما تقدم ان التـاريخ علم من العـلوم العالية التى تجرى على قواعد معينة وقوانين محددة على العموم الا أن هـذا التقييد والتحديد لم يخله مع ذلك من أثر الصناعة وحلية الفـن التى كانت موضع عناية المتقدمين من المؤرخين وهى البلاغة والفصاحة فى التعبير وحسن البيان فان هناك أسبابا خاصة أبقت لحلية الفن نصيبا عظيما فى التاريخ ليس لسواه من بقية العلوم . نعم يجوز لكل عـالم من العلماء فى أى علم كان ان يعمد فى تدوين ابحاثه الى بلاغة العبارة وفصاحة القول فتولد لها فى النفس قيمة تساعد على بقاء أعمـاله من

طريق هذه الوجهة الادبية اذا جاء يوم يخشى عليه فيها من ضياع قيمتها العلمية الا أن ذلك لا يتعدى حد الكشف والوضوح اما المؤرخ فانه لابد له من التأنق فى هذه الحلية الصناعية ولا يكتفى بها فى الرواية والانتقاد واستنتاج القواعد العامة بل يستعين بها على تصوير الحوادث وتخييل الوقائع بكيفية يتشبع بها الخيال وتنشر فينا حياة الامم الماضية بعد موتها وتمثل لأعيننا ببلاغة الوصف وسحر البيان معيشة الامة التى كانت عليها فى حضارتها وهيئتها فى مدينتها حتى كاننا حاضرون فيها ولا يصل المؤرخ الى غايته الا بقوة الاقتدار على حسن التصوير والجمع بين فراسة المنتقد وتحقيق العالم وحذق المصور هذا مع البعد كل البعد عن الميل الى الهوى والتعصب للغرض والتحزب للمذهب وان يكون أيضا واسع التخيل لا انه يستعين به على الاختراع والاختلاق بل ليلبس الحوادث ما كانت مظروفة فيه من العادات والاذواق الشائعة فى مدنية أصحابها ويطبع صور الوقائع بارزة وسط الهيئة التى تجلت بها فى الاعصار الماضية والاقطار المختلفة وعليه أن يستعمل كل ما فى قدرته من البلاغة والفصاحة فى وصف الآثار التى يستدل بها على أحوال تلك الامم وشرح احوالها وما كانت عليه من الاخلاق والعادات فاذا اجتمعت له هذه المزايا المتعددة أمكن له أن يمثل لنا أهل العصر الماضى ويعرضهم على الناظر فى وسط أعمالهم وأفعالهم ويكون مقدار ما يقع على أنفسنا من تأثير ذلك بمقدار ما يبلغه من الدرجة فى بلاغة الوصف وحسن البيان حتى تبدو لنا أعمال الامم الماضية كانها أعمال حاضرة يستقيم عليها القياس وتصح الاحكام وحلية الصناعة لا تذهب هنا بشى من بهاء الحقيقة وجلالها بل تزيدها وضوحا وتكسبها جلاء .

وسيتبع الكلام

١٠ ــ كلمة فى التاريخ

(٢)

* محمد المويلحى

هذا والباحثون فى أصل وضع التاريخ يقررون ان التاريخ لم يكن معروفا فى الجمعية البشرية منذ نشأتها بل قد مضى عليها ازمان طويلة لم يصل الى أهل الازمان التى بعدها اى علم بها ولم يحفظ لها من الآثار ما يدل عليها الا ما وجد من الآنية والاسلحة والعظام المنقوشة . وتسمى هذه المدة عند علماء التاريخ « فترة ما قبل التاريخ » ثم اعقبتها ازمان أخرى لم يحفظ لها من أثر سوى ما بقى من بعض الالفاظ واحاديث الخرافات فى اللغات ولا عبرة فى التاريخ بهذه الفترة لانه لا تعيين للحوادث فيها بل كل ما يؤثر عنها من الادلة المحسوسة ينحصر فى بعض كلمات واقاصيص خرافية لا يلتفت اليها ولا ينتفع بها الا الباحثون فى تاريخ الاديان الوثنية وأساطيرها أو المشتغلون منهم بعلم أصول اللغات . فلا يعول حينئذ فى الوقوف على مبدأ علم التاريخ فى العالم الا من عهد وجود الكتابة واهتداء المتقدمين الى تدوين الوقائع بها على الحجارة والمعادن والاخشاب أولا ثم على الرق والبردى ثانيا وهذا العهد يبتدىء منذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت الا أن كثيرا من الامم قد انمحى أثرها ولم تترك لها أثرا من تاريخها فى تلك المدة ولا يبتدىء التاريخ بمعرفة أحوال الامم على التحقيق الا منذ ثلاثة آلاف عام . على أن التعيين والتحديد فى التاريخ لم يعرف الا بعد هذا العهد بقرون طويلة فان اليونانيين والرومانيين لم يكونوا يعرفون من بلاد أوربا وآسيا وافريقيا الا ما جاور البحر الابيض المتوسط ولم يظهر أثر فى التاريخ لأهل البلاد الشمالية فى أوربا وأهل البلاد الشرقية فى

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢١٤ ، السنة الخامسة ٢١ ربيع الثانى ١٣٢٠ ٢٦ يوليو ٩٠٢ ، ص ١ ، ٢ .

آســيا الا بالتدريج وكم من أمة أقامت وبادت ولم يبق من آثارها الا اسمها كما انه لا يزال من الامم بيننا الى اليوم أمم مجهولة التــاريخ لتعذر الوقوف على حقيقة حوادثها فى ماضيها وحاضرها معا •

فيجب اذا على من يريد الاشتغال بالبحث والتنقيب والتحــديد والتعيين فى هذا الباب ان لا يكتفى بالنظر الى تلك الآثار التى خلفتهــا لنا تلك الازمان الخالية بل ينظر فيهــا الى ادوار انتقالها وارتقائهــا بصورها المتنوعة واشكالها المتعددة مع ملاحظة اختلاف الزمان والمكان حتى يمكن له من اختيارها تصوير الحالة التى قامت عليها فينتقل فيهــا من الجزئيات الى الكليات ومن الأخص الى الاعم ليتيسر له أن يستخرج منها قواعــد عامة يقوم عليهــا الدليل والبرهان •

ولم يصــل التاريخ الى دائرة العلوم المبنية على النظر والقياس على حسب ما بيناه فى تحديد هذه العلوم الا منذ عهد قريب فقــد كانت الامم الغابرة مختلفة السيرة اختلافا بينا فى تدوين حوادثها فكان منهــا من لا تدون من الحوادث الا ما تهتم له من وقائع شخص من أشخاص ملوكها أو طبقة من طبقات حكامها ولا تذكر الوقائع المتعلقة بالسياسة أو الدين أو الحــرب الا على حسب ما يميل هوى الحاكم ويرضــاه أهل السلطان فيها فيدونها الكتاب والادباء فى المنثور والمنظوم من الكلام على طريقة شعرية يتلقنها الابناء عن الآباء وينشدونها بينهم فى مجالسهم أو يخطونها بالكتابة فى المعابد والهياكل والمقابر فكانوا يبعدون بذلك عن الغرض المفيد من وضع التاريخ باستعراض الحوادث ودقة تبويبيهــا وترتيبها • ثم انتجت تلك العصور طريقة انتشرت وشــاعت بانتشــار العلوم وهى الطريقة الادبية التى لا تزال مقبولة الى اليوم عنــد أهل التقصير فى النظر والقياس يروجها عليهم جمــاعة الادباء وأهل صناعة الانشاء الذين يلتفتون الى فصاحة القول وبلاغته أكثر من الالتفات الى الحقائق العلمية • وعلى كل حال فان لهذه الطريقــة امتيازا عــلى تلك الطريقة التى من قبلها وهو انتقال التاريخ من تدوينه على شكل معــين محدود عند أهل الحــكم والسياسة وعلى طريقة تشــابه طريقة تدوين

الامور الرسمية الى تدوينه على جهة التوسع والاطلاق لا قيد فيه عند أهل الكتابة والانشاء ولذلك فانك تراهم فى تدوينهم للتاريخ ينتقون من الحوادث ما شاؤوا ويسلكون فى ترتيبها وتبويبها صورا شتى ويستعملون فيها من الايجاز أو الاطناب ما تدعو اليه حاجتهم من استجلاب نظر القارىء واستمالته بمحاسن القصص ومختار الحكايات والنوادر ليطبعوا فى صدره موعظة أدبية أو سياسية من آثار السير الماضية أو ليجذبوا قلبه الى محبة شخص معين ويستميلوا فكره الى حزب معين ومذهب معين أو ليبغضوه فى شخص وينفروه من حزب ويبعدوه من مذهب وهذه الطريقة ينتفع منها بعض الانتفاع من جهة انها تتناول شيئا من البحث عن الاسباب والعلل واستنتاج النتائج وبيان ارتباط الحوادث بعضها ببعض والرجوع بها تارة الى تقلب الاهواء والاغراض البشرية وتارة الى أحكام القضاء والقدر وطورا الى نصوص الكتب السماوية **ولكنها تجر المؤرخ الى ارتكاب خطأين الاول انها تذهب به الى اهمال النظر فى مجموع المعيشة الاجتماعية والتهاون فى تقييد سلسلة الحوادث التى تتأثر تلك المعيشة بمؤثراتها فى كل أمة و فيتعلق بتدوين حياة الكبراء والملوك ويشتغل بذكر حوادثهم دون سواهم ولا يلتفت فى الحوادث العامة الا الى ما يبهر به النظر من الوقائع النادرة والحوادث الغريبة لانه يجد له فى ذلك من الصور المدهشة والمواقف المؤثرة ما يستعين به على استخراج بعض الحكم الادبية وما ينتصر به لبعض الآراء السياسية . والثانى ان هذه الطريقة تضطره الى استخدام الحقائق التاريخية لما تقضى به مقتضيات الصناعة الادبية والآراء السياسية والدينية التى ينتصر لها فلا يهمه من تلك الحقائق الا ما انتفع به فى اظهار بلاغته وفصاحته وحسن قدرته على الحكاية والتصوير** وهو لذلك يقبل كل حادثة تقع فى يده بقطع النظر عن الوثوق من صحتها أو بطلانها خصوصا اذا كان فيها من الغرابة ما يزهو به الحديث وتحلو الرواية وربما دعاه ذلك فى أغلب الاحيان الى نبذ الصحيح وتدوين الباطل على حسب ما يجد من المصلحة فيهما لترويج

آرائه وأفكاره والحصول على الغرض الذى تكلف له وضع التاريخ غير ملتفت فى ترتيب الحوادث الى التنبيه على ماهو مقطوع بصحته منها وما هو موضع للشك والارتياب بل هو يسير فيها على حسب ما يمليه عليه ذوقه ويتسع له خياله فى حسن الوصف والتصوير لا فرق بينه فى ذلك وبين من يتفرغ لوضع الحكايات الخيالية والقصص الموضوعة •

ولما كان غرض المؤرخ على هذه الطريقة هو الانتصار لمذهبه السياسى والتحيز لفئة من الناس دون فئة فهو لا يبالى عند الحاجة بتكذيب الوقائع الصحيحة الثابتة ونفيها وتأييد الروايات الكاذبة واثباتها وتراه مندفعا بطبيعة الحال الى استعمال مهارته وحسن صناعته فى اقامة الحجة على صدق دعواه فى الحوادث وتفنيد ما يخالف مذهبه منها وتراه فى سرده للوقائع وترتيبها على هذا النحو يوجز فى غير موضع الايجاز ويسهب فى غير موضع الاسهاب متابعة لما يقضى به غرضه فى تعزيز مذهبه وتأييد مشربه •

وأول من اشتغل بفلسفة التاريخ بعد العصور اليونانية والرومانية ابن خلدون فى مقدمته ثم من جاء بعده عند الغربيين من كبار الكتاب الباحثين فى القرن الثامن عشر فانهم رأوا فى أثناء اشتغالهم بارتقاء هذه المدنية الحاضرة انه لابد من ضبط الوقائع التاريخية وتمحيصها وترتيبها على وجه يمكن معه استخراج القوانين والقواعد العامة للمعيشة الانسانية والجمعية البشرية لينتفع بها ويرجع اليها فى نظام الحضارة والعمران ثم تبعهم على ذلك أهل البحث والتدقيق من علماء القرن الماضى وانتبهوا الى البحث فى الآثار المادية التى لا تزال باقية فى العالم من أعمال أهل القرون الماضية ليستخرجوا منها ما يمكن الوقوف عليه من عادات تلك الامم وأخلاقها ويستعينوا بها على تصوير أعمالهم وما كانت عليه هيئة اجتماعهم واشكال معايشهم على الوجه الصحيح الذى لا يحتمل الزور والبهتان ولا تؤثر فيه الاغراض والاهواء فأفادهم البحث فى ذلك واهتدوا بكثرة الاكتشاف للآثار فى بلاد المشرق

مثل مصر وآسيا الصغرى وبـــلاد العجم وأرض الهنـــد الى حســـن الوقوف على احوال المدنية الشرقية وانتفعوا من عملهم هـــذا انتفاعا بينا ثم اشتغلوا بكل جهدهم فى معرفة اللغات القديمة ليسهل لهم بهـــا حـــل الرموز واستجلاء الوقائع المنقوشـــة عـــلى صفحات تلك الآثار وعمدوا الى الاستعانة فى هذا الطريق أيضا بمـــا وصلت اليه العـــلوم الطبيعية والفلسفية من التقدم والترقى فى هذا العصر فنبغ من بينهم عدد عظيم من علماء التاريخ وتم لهم الغـــرض المقصـــود من ادخـــال التاريخ فى دائرة علوم النظـــر والقياس التى تصـــدر عنها القواعـــد الثابتة ويستنتج منها القوانين العامة • واكبر الفضـــل فى ذلك لعلمـــاء الامة الالمانية فانهم تفرغو لهـــذا الامر كل التفرغ ودققوا البحث فيه كل التدقيق فظهرت لهم مؤلفات فيه فاقوا بها سواهم من علماء بقية الامم الغربية وتيسر لهم فيها أن يجمعوا بين كل الفروع اللازمة لهـــذا العلم من جهـــة دقة الترتيب والتبويب وحسن الشرح والحكاية وبعد النظر فى القياس والاستنتاج مع البلاغة فى الوصف والابداع فى التصـــوير • وقد قال بسمارك أن نجاحه فى كل أدوار سياسته راجـــع كله الى درس هذه المؤلفات والاســـتفادة من هذا العـــلم الجليل **وتطبيق الحـــوادث الحاضرة على ما يشاكلها من الحوادث الماضية والعمل فيها على مقتضى تلك القوانين العامة والاحكام الثابتة** •

والكلام يتبـــع

١١ ــ كلمة فى التاريخ
(٣)
* محمــد المويلحى

مضى بنا الكلام عن تعريف علم التاريخ ونتكلم اليوم عن الطرق التى يجرى عليها المؤرخون فى معرفة الحوادث وتصويرها ودقة التمييز والتفريق بين الوقائع الخاصة والوقائع العامة وتبيين الحدود الفاصلة التى يتوصلون اليها فى استنتاج القواعد والقوانين العامة يعنى موضوع علم التاريخ وفلسفته فانه متى وقف المطلع على مقــدار ما فى أيــدى المؤرخين من المحصول وعلى كيفية تصرفهم فيــه واستخدامهم له وعلى الطريقة التى يستنونها فى تقرير الحــوادث وبســط الوقائع تفصيلا واجمالا واستنباط الأحكام العــامة التى يستخرجونها بالبحث والفــكر أمكن له أن يدرك الى أى نقطة تقرب الحــكاية من الواقع والتاريخ من الحقيقة والى أى حــد يجب الاعتماد عليه ومعرفة الشــك من اليقين وما يدخل فى باب الاحتمــال وما ينصرف الى جانب البطــلان وبالجملة فانه يتيسر له أن يدرك قيمة التاريخ العلمية وحقيقة منزلته •

وينقسم هذا المطلب الى قسمين قسم يختص بتحقيق الحــوادث وتصوير الوقائع وقسم يختص باستنتاج القضايا والاحكام •

أما القسم الاول فيلزم لمن يباشر العمل فيه عدة وجوه :

أولا ــ أن يقرر لنفسه طريقة فى البحث والكشــف تنطبق عــلى الغرض الذى يرمى اليه من حل مشكلات الحوادث وتوضيح بواطنهــا •

ثانيا ــ أن يعمد الى طريقة التحليل والتفصيل فى الكليات لتحرى النقــل ونقد الأسناد حتى يمكن له بها أن يفصل كل حادثة عن اختهــا ويحدد كل واقعة فى ذاتها •

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢١٦ ، السنة الخامسة ٥ جمادى الأولى ١٣٢٠هـ ١٩ أغسطس ١٩٠٢ ، ص ١ ، ٢ .

ثالثا ــ أن يتبع بعد ذلك طريقة الاستقراء فيفحص الجزئيات ويؤلف بينها لتتركب له منها الكليات وتستقيم الى قضايا وأحكام عامة •

رابعا ــ أن يكون له من حسن التقدير والتمييز فى الادب والسياسة بضاعة وافرة تجعل لرأيه فى الحوادث شأنا مقبولا وحكما مرضيا •

خامسا ــ ان يسلك فى التحرير والتعبير ما شاء من مسالك البلاغة والفصاحة التى يراها موافقة لقرائه فى اجتذاب ألبابهم واختلاب عقولهم لقبول ما يقرره من أفكاره أو آرائه التى يريد أن يأخذهم بها ويثبتها فى اعتقادهم على مثل ما ثبتت فى اعتقاده •

أما الوجه الاول من هذه الوجوه وهو خطة البحث والكشف فبيانه : ان الاصل فى استكشاف الحوادث التاريخية هو حب الاستطلاع الذى يقوم بنفس كل انسان لمعرفة المجهول والتشوف الى استجلاء الغامض وتوضيح المبهم فكلما تعددت الوقائع الغامضة وكثرت المسائل المبهمة فى تاريخ الامم الغابرة زادت الحاجة الى حل مشكلاتها وتوضيح معمياتها وفك طلاسمها وهى لكثرة تنوعها واختلافها لا تكاد تحصى وتستقصى ومنها ما يكون له حد معين فى البحث مثل تحقيق واقعة خاصة بذاتها أو فرع من فروعها أو ظرف من ظروفها أو تاريخ وقوعها أو فترة من الزمن أو عددا معلوما من الايام والسنين أو نقطة خاصة فى سيرة فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات ومنها ما يتناول عدة وقائع مجتمعة وحوادث متسلسلة كاخبار حرب من الحروب أو ثورة من الثورات أو فتنة من الفتن وكترجمة سيرة شخص من الاشخاص فى حياته وذكر انتشار مذهب من المذاهب بعينه وقد يتسع الحال فيها الى أن تتناول أجيالا من الزمن أو تاريخ أو سيرة أمة معينة أو عدة أمم مختلفة •

وعلى كل حال فأول عمـل يتحتم على المؤرخ الاشتغال به لازالة العقبات وحل المشكلات هو الرجوع باصول المسائل الى فروعهـا وتحليل جزئياتها الى كلياتها كما تقدم لتكمل له الاحاطة بها بأيسر طـريق وأهونه وذلك بأن يتدرج فى المسألة من **البسيط الى المركب ويرتقى من السـهل الى الصعب وينتقل من مدارج الفروع الى منابت الاصـول فان كـل واقعة مهما كان شـأنها ضعيفا وقدرها حقيرا ودائرتها محدودة فى التاريخ لا تخلو من التشعب واختلاط التركيب . وكل عمل من أعمال الاشخاص فى انفرادهم أو أعمال الامة فى اجتماعها ليس هو الا نتيجة علل وأسباب متعددة منها ما يكون ظاهرا واضـحا ومنها ما يكون خفيـا باطنا . وان كثيرا من الحوادث الاجتماعية التى تظهر لك لأول وهلة أنها بسيطة تجدها اذا تأملت فيها قليلا مختلطة التركيب متعددة العـلل والاسباب متغلغلة فى الغموض والاشكال مما لابد من الأخذ فيه بطريقة الحل والتجـزئة وطول النظر فى كل جزء بسيط على حـدة . فاذا اشـتغل المـؤرخ مثلا بالبحث فى مدنيةامة من الامم فى زمن من الازمان تعين عليه أن يقسـم بحثه الى عدة أقسـام وأبواب يختلف عددها باختـلاف ما فى الحيـاة الاجتماعية من الاعمال والشرائع التى تتركب منهـا تلك المدنية مثل باب الصناعة وباب التجـارة وباب الاحكام** والشرائع وباب المذاهب والاديان وباب العلوم والفنون وباب الاخلاق والعـادات وباب السياسـة بين الرعية والحكومة وبقية الحكومات الاخرى خارجا وهلم جـرائم يرجع بعد ذلك الى تجزئة كل قسم من هذه الاقسـام العـامة الى فصـول خاصة ثم يأخذ فى البحث عن معـرفة العلل والاسـباب فى كل أثـر من آثارها وما اختلفت به احوال الزمان والمـكان وما تقدمها أو تبعهـا من الحـوادث التى تتعلق بها فاذا تم له البحث والنظر فى الحـوادث عـلى هـذا النحـو وجب عليـه أن يلتفت فى كل حـادثة منهـا الى ما تم فيهـا قبـله من الكشـف والبحث ومـا بقى منهـا متروكـا مهملا يحتاج الى الاشتغال به . وهنا يقضى عليـه الحـال بالاطـلاع على جميع الكتب والتصانيف التى وضعت فى هـذا الباب وان يستقصيها مطالعة حتى لا يقع فى الاعادة والتكرار ولا يعرض نفسـه للسـخرية

باكتشاف ما هو مكتشف والبحث فى ما قد انتهى البحث فيه وأن لا يكتفى فى ذلك بمادونه المصنفون والمؤلفون فى لغة قومه بل يتوسع فى الاطلاع الى ما وضعه المؤرخون فى أكثر اللغات فان التاريخ عمل مشترك بين جميع الامم وقد قال بعض علمائه من أهل هذا العصر : **« لقد أصبح التاريخ فى أيامنا هذه عملا شائعا يشترك فيه كثير من العمال على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومن غريب أمرهم انه لا تجمعهم صلة معرفة ولا تربطهم علاقة صحبة ولكنك تراهم يتساعدون ويتعاونون فى عملهم وهم لا يشعرون اذ يقوم كل منهم بنصيب له فى هذا العمل يضم الى نصيب اخيه فيتكون منه هذا الاثر الباقى على الدهر »** .

وينبغى لمن يتعرض للمباحثات التاريخية وتحديد البحث والنظر فيها ان يبدأ بالرجوع الى أصل كل تاريخ وهو الآثار الباقية بالاخبار والأسناد الناطقة بالحوادث . ومن المعلوم ان كل حادثة يمكن أن تخلف لها أثرا فى الوجود فمن هذه الحوادث ما يكون أثره ماديا يبقى ظاهرا للمشاهد والعيان ومنها ما يكون معنويا يبقى فى الطبائع والاخلاق وتنقسم هذه المصادر على العموم الى ثلاثة أقسام قسم الآثار المادية التى اندثر أصحابها وبقيت قائمة على الدهر مثل قطع العظام والأوانى والملابس والاسلحة والابنية وأدوات الصناعة وآلاتها . وقسم الآثار التى يقوم على الرمز والاشارة مثل النقوش والتصاوير والنقود والأختام والطوابع والخطوط المنقوشة على الابنية والمحررات الرسمية والقصص والمذكرات والروايات والمراسلات وجملة التصانيف الأدبية وقسم الآثار المعنوية يعنى ما أبقاه لنا الماضى منطويا فى ثنايا اللغات والعقائد والعادات والاخلاق . وللمؤرخ أن يستمد ويقتبس من هذه الاقسام معا أو من بعضها دون بعض على حسب ما تدعوه اليه الحادثة التى يشتغل بالبحث فيها وتقريرها ولكن على كل حال لا يجوز له أن يكتفى من ذلك على ما يقع فى يده عن طريق الاتفاق مما لا يتم معه غرض ولا يستقيم به بحث ولا ينتهى منه عمل فقد رأينا من الحوادث

التاريخية ما اشتغل المؤرخون بتدوينه وتقريره ثم عادوا اليه المرة بعد المرة حتى بلغ عدد تجديدهم واصلاحهم ما تجدد وظهر من الآثار التى تغير من وجه الحادثة وتكيف من وضعها فهى لا تزال تتبدل وتتشكل الى اليوم لم تثبت على حال ولم يتقرر لها حكم وكان ذلك كله من نتيجة التعجل فى الوضع والاثبات وقلة العناية باستقصاء ما يتعلق بها من جميع المظان **فيجب على المؤرخ من أجل ذلك أن يستجمع له ما يمكن من فهرس الكتب التى احتوت عليها الخزائن العمومية والخصوصية وينتقى منها جميع الكتب التى تتعلق بالحادثة ثم يلتفت بعد ذلك الى الآثار المخلفة عن الازمان التى يشتغل بحوادث تاريخها من مادية وأدبية كما مر تفصيل ذلك ثم ينتهى بالتجول فى أنحاء البلدان التى استوطنها أهل تلك الاجيال الماضية ويكشف فيها ما طوته الأرض من آثارهم** • ومع هذا كله فانه قل فى المؤرخين من يقدر على القطع بأنه قد استوفى فى تدوين حوادثه كل اجزاء البحث واستقصى جميع المصادر والموارد فيها وغاية ما يفتخر به انه قد استجمع ما وصل اليه علمه تاركا لمستقبل الايام وأحكام المصادفات ان تكشف للناس منها ما اختفى أثره وغمض مكنونة بعد أن أفرغ ما فى جهده واعذر نفسه ببذل ما فى طاقته •

١٢ ـ سهم خائب

* محمد المويلحى

تنحصر اغراض الكتاب الذى وضعه المستر « ويلمور » لاستبدال اللغة العربية باللغة العامية فى أن اللغة التى يتكلم بها العامة فى مصر هى لغة قديمة جدا مستقلة عن اللغة العربية الفصحى وانها تنطبق على اجرومية العبرانى والآرى وتنتسب اليها الى الأصل العربى • وان اللغة العربية الفصحى لا تصل الى قلوب الناشئين على استعمال غيرها ولا تثير فى النفوس صور الحقائق النامية • وانها قاصرة فى ذاتها ناقصة فى حروفها لا تتسع ان تتناول اليوم المطلوب وتؤدى المقصود • وانها مع ذلك لغة بعيدة الغور صعبة المراس يحتاج المتعلم لها الى زمن طويل لا تستغنى عنه العامة فى ممارستها لاسباب معايشها ومرافقها • وان تعميم التعليم بين طبقات بسواه ولا ينتظم لها عيش فى الحضارة بدونه • وان اللغة العربية لغة « عصور واممم لم يشرق عليها نور العلم » وان من مصلحة المصريين الرجوع الى لغتهم العامية الاصلية واستبدال اللغة العربية واستعمال الحروف اللاتينية فى كتابتها مكان الحروف العربية • وان المسلمين المصريين اذا كتبوا اللغة التى يتكلمون بها لا يصيبهم أى ضرر الا كما أصاب المسلمين الاتراك أو الفرس أو الهنود •

وكل متصد للرد على هذه المطالب وتفنيدها يجد أمامه من كثرة البراهين والادلة شيئا كثيرا لا يزال يتناوله الى اليوم جماعة الفضلاء والادباء الذين تنشر عنهم جريدة « المؤيد » الغراء ما تنشره فى كل يوم من عهد ظهور الكتاب ولذلك لا نرى بدا من الايجاز فى بسط البراهين اكتفاء بما تناولته تلك الاقلام مما يشفى ويكفى •

(*) مصباح الشرق ، العدد ١٩٠ السنة الرابعة ، ٣١ يناير ١٩٠٢ وانظر المؤيد ، العدد ٣٠٨٠ السنة الثالثة عشرة فى ٦ فبراير ١٩٠٢ .

ونبدأ بالكلام فى رفع الخطـأ الجسيم والالتباس العظيم الذى يقع فيه الغربيون كل حين من تقسيم اللغة العربيـة الى لغـة فصحى ولغة عامية لا توسـط بينهما وان الكاتب العربى اذا لم يصـل فى كتابته الى رتبة الجاحظ والزمخشرى ولم يسـهل على قريحته فهم أراجيزرؤبة والعجاج فهو عامى ولذلك قدروا لمن يريد الاحاطة باللغـة العربيـة من أهلها الخمسين أو الستين سـنة يقضيها من العمـر فى درسـها • **وفاتهم ان هناك لغة متوسطة بين اللغة الفصحى واللغـة العامية وهى ما نسميها باللغة الصحيحة العربية التى تجرى على القواعد النحـوية والصرفية خالية من التشويش والتعقيد فى التركيب تستمد بفصاحتها من اللغـة الفصحى وتمتزج سلاسلها بفهم الخاص والعـامى عـلى السواء كما أن هناك لغة أخرى بين هذه اللغة الصحيحة واللغـة العامية وهى لغة كتابة الدواوين التى تنتهى الى اللغة العـامية المستعملة بـين الاميين وكلها متصلة ببعضها راجعة الى أصل واحد وهو الأصل العربى** المبين • بمعنى انك لو جئت بالفلاح الامى العامى وقرأت له ورقة تختص باشغاله من أوراق الحـكومة لما توقف فى فهمها ولو جئت لكاتب الدواوين برسالة من العربية الصحيحة سالمة التراكيب ما توقف ذهنه عن الاحاطة بها ولو جئت لكاتب تلك الرسالة الصحيحة بما شئت من أقوال الجاهلية لم يستعص عليه فهمها بعد الرجوع الى القاموس شـيئا قليـلا لحل الفاظها اللغوية كما يكون ذلك بين جميع أهـل اللغات التى وضعت فيها القواميس •

ولو خلصت الالفاظ العامية من بعض التحريف لارتدت كلها الى الأصل العربى ما عدا الدخيل الذى يكون فى كل لغة من اللغات حتى فى لغة أهل الجاهلية الاولى ولا نضرب لذلك مثالا بعيدا بل نأخـذ نفس الالفاظ التى اختارها المستر « ويلمور » والمنتصرون له دليـلا عنـدهم على بعد الاختلاف بين الالفاظ العامية والالفاظ العربية الصحيحة فقـد

(*) تمييز الكلمات من عندى .

جاء فى أقوالهم « لماذا نقول كلنـا « وش » و « حنـك » و « مناخير » و « فم » و « أنف » و « اذن »

أما « وش » فهو فى النطق الموجه بذاته مع تعطيش الجيم الـى الشين والوقوف على الهاء وأما « حنك » فهو لفظ عربى فصيح مرادف للفم وهو على ما فى القاموس « باطن أعلى الفم من داخل أو الاسـفل من طرف مقـدم اللحيين أو ما تحت الدقن من الانسـان وغـيره قال عنترة « الا المدرع بين النحرين والحنك » وأما المنخر فهو على ما فى القاموس أيضـا « الانف وقيل ثقبـه وجمعه مناخر ومناخير قال تأبط شرا « اذا سد منه منخر جاش منخر » وأما « الودن » فهى الاذن بقلب الهمزة واوا واستثقال النطق بالـذال فأبدلوها دالا وألذى يمعـن فى الفاظ العامة يجد انه لا فرق بينهـا وبين الفاظ اللغـة الصحيحة الا فى تحريف النطق ببعض الحروف التى تثقل على اللسان مخارجها ولا يسهل على العامة ضبطها على أصلها فى سرعة تخاطبهم مثـل ابدال الذال دالا والظاء ضادا والقاف الفا والثاء تاء وفى تسـكين أواخر الكلم الـذى دعت اليه سرعة المحاورة أيضا • ومثل هذا نجـده كثيرا فى تلك اللغات المهذبة المستخرجة من اللغة اللاتينية مثل الفرنسـوية والتليانية التى يدعوننا الى العمـل على شاكلتهما والخروج من ضيق العربية الصحيحة الى العامية الفاسدة فترى الفرق عظيما فى اللغتين كتابة وفى نطقها لهجة بين العامة فى بعض البلاد الفرنسوية والتليانية وهو ما يعبرون عنـه بلهجة « الارجو » A Rargot

ومن كل هذا يتضح أن اللغة العامية المصرية هى محرفة عن اللغة الصحيحة العربية لا أنها من أصل آخر ولغة أخرى وأنها متصـلة بها لا يعسر فهمها على أحد من العامة كما تراه فى كثير من مجالس العـامة الذين يقضون ليلهم فى استماع الاقاصيص والروايات مكتوبة باللغـه الصحيحة كما أنه لا يعسر على أهل العربية الصحيحة أن يقفوا عـلى اسرار اللغة الفصحى كما تراه فى أهل طبقتها من حسن الاطـلاع على كتب قدماء المصنفين من الفصحاء والبلغاء •

ولا يقال لهذه العربية الصحيحة انها صعبة المراس عسيرة المنال تحتاج الى زمن طويل وتعب شديد فانه يمكن لمن يدرس اللغة العربية فى مدة مثل مدة دراسته للفرنسوية مثلا أن يتعلم القواعد النحوية والصرفية مع بعض التمرن والتريض فى علوم البلاغة وان يقدر على الكتابة والانشاء ويصل بسهولة عبارته الى تفهيم الخاصة والعامة معا ويمكن له أن يقف على فهم معانى القرآن بحل بعض الالفاظ اللغوية فيكون قد وصل الى معرفة لغة القرآن التى يقولون عنها انه لا يمكن لكل من يتعلم العربية الوصول اليها • ولا يحتج علينا هنا بأن أبناء المدارس الذين نالوا الشهادات لا يزالون متأخرين عن الوصول ألى هذه الدرجة فجوابنا على ذلك أن طريقة التعليم وسوء انتقاء المعلمين هما السبب الأعظم فى هذا التأخر كما كتبنا عن ذلك ونبهنا مرارا •

ولكننا مع هذا التأخر وسوء التعليم نجد أن الكتابة بالعربية الصحيحة تقدمت عن الازمان السالفة وهذه الكتب والجرائد التى تنشر بيننا اليوم باللغة العربية الصحيحة اذا نحن قابلناها بمثلها منذ قرن أو قرنين نجد الارتقاء فى اللغة الصحيحة عظيما والتقدم ظاهرا • ومن حضر أهل الجيل الماضى فى مجالسهم وأهل الجيل الحاضر وجد أن التخاطب نفسه انتقل بين الناس انتقالا واضحا من الانحطاط المعامى الى التعبير الصحيح • ولا لوم على الغربيين فى ما يفترونه من أن الكتابة السائرة بيننا اليوم فى الجرائد والكتب هى عربية ساقطة وعبارات غير فصيحة فانهم لا يدركون ذوق اللغة مهما تعلموها ولو أنهم أفنوا أعمارهم فى درسها لما أحسوا بما هو السهل الممتنع ذلك النوع من أنواع الفصاحة • نعم يوجد بين تلك الكتب والجرائد ما هو منحط الدرجة فى صحة التعبير بل هو دليل على تقصير الممارسين لهذه الحرفة وتهجم من لا استعداد عنده ولا أهلية له على موقف الانشاء والتحرير •

فاذا استمر الترقى فى كتابة اللغة العربية الصحيحة على ما نراه اليوم واعتنى أهل المعارف بتأليف لجنة للاصطلاح على أسماء المسميات

الحديثة من القواميس العربية كما يفعل الغربيون باصطناع تلك الاسماء فى اللغتين اللاتينية واليونانية وللنظر فى اصلاح طريقة التعليم وتهذيبه وحسن انتقاء المعلمين من أهل الكفاءة والجدارة لكثر عدد الكاتبين والمنشئين من التلاميذ باللغة الصحيحة ولعم التفاهم بها بين الجميع فى مستقبل الازمان ولا ستغنينا عن كل هذا الذى يقال فى باب تقصير اللغة العربية وعدم اتساعها لتعميم التعليم بها •

واما من جهة الضرر الذى يلحق بالمصريين من مشروع المستر ويلمور فوق الاضرار بالدين فهو عظيم جدا أولا لانه يعزلهم عن أهل العالم الاسلامى فى التخاطب والتفاهم وثانيا أنه يضيع عليهم ما سلف من علوم أهل اللغة العربية وثالثا انه يحرمهم من ذوق البلاغة والفصاحة الذى لا يمكن للغة العامة أن تحوز شيئا منه مما هو موجود فى اللغة العربية الصحيحة وما تنطوى عليه من الطلاوة والحلاوة وقوة التأثير على النفوس •

وكيف لا ينعزلون عن العالم الاسلامى بموت اللغة من المسلمين فانه مهما اختلفت لغاتهم فان اللغة الصحيحة العربية محلا معلوما يماثلها فيه محل اللغة الفرنسوية بين اللغات الاجنبية فى مخاطبات الدول والامم عند انتشارهم فى البلدان فان لغة القرآن دخلت مع القرآن بين لغة المتكلمين بالهندية والفارسية والتركية واختلطت بها اختلاطاعظيما يسهل معه على الفارسى أو التركى مثلا انك اذا خاطبته بالعربية الصحيحة ادرك غرضك ان لم يفهمه تماما وكثيرا ما رأينا أهل الانشاء فى اللغة الفارسية والتركية لا يحتاجون فى قراءة الكتب والجرائد باللغة العربية الصحيحة الى عناء كبير وان كانوا لم يتعلموا العربية فى عمرهم أبدا •

ولا وجه لما يقال من أن المصريين اذا انسلخوا عن اللغة العربية الصحيحة وأقاموا العامية مقامها لم ينقصهم شىء كما لم ينقص أهل اللسان الفارسى والتركى والهندى شىء فى الدين فان تلك لغات أصلية

عندهم ازدادوا عليها لغة القرآن وأما هذه اللغة العامية فليست بلغة أصلية للمصريين ويزيد عليهم انهم يفقدون بها لغتهم ولغة دينهم حتى أنهم ليفقدون التفاهم مع أهل اللسان العربى فى سائر البقاع فان اللغة العامية المصرية لا تماثل اللغة العامية التونسية أو المغربية أو السورية وغيرها على أننا نرى فى الواقع بيننا الآن ان هؤلاء الاجناس يفهمون بعضهم بعضا اذا تكلموا باللغة العربية الصحيحة والكتاب الواحد بها يقرأ ويفهم فى تونس كما يفهم فى مصر وكما يفهم فى سوريا والكتاب العامى لا يفهمه أحد ان لم يكن من أهل بلدته وعلى لهجتهم •

وقد استوفى الكتبة غيرنا بقية الادلة والبراهين على فساد ذلك المشروع وضرره بالامة المصرية والامة العربية خاصة وعامة • ولكن الذى لابد من الرجوع اليه هو أنه لو صحت براهين المستر « ويلمور » واستقامت ادلته على نفع مشروعه للامة المصرية لما أمكن لاحد من المسلمين قبوله ألبتة خاصيا كان أو عاميا • أما الخاصة فقد تبين لهم مما قدمناه فى هذا الموضوع وكتبه أهل الفضل ان دينهم يحظر عليهم الالتفات الى هذا المشروع والى أقوال أصحابه •

وأنا أراهن أنه لا يجتمع عشرة من خاصة المسلمين من بين هذه الملايين على المجاهرة باستحسانه واستصوابه مهما زاغت عقائدهم وأما العامة الذين يشفق عليهم المستر « ويلمور » ويسعى بزعمه فى مصلحتهم فانا اراهن أن كان يجد واحدا منهم ولو كان من ارباب القضايا يقول أنه يرضى بكتابة الآيات السماوية بالحروف الافرنجية واستبدال لغة القرآن بلغة النسوان • ان هم منهم واحد بذلك ولم يكن فى عقله دخل وفى رأسه بله وعلى بصره غشاوة فانا أول المسلمين من المسلمين •

١٣ ــ الانسـان فى الوجـود

* محمد المويلحى

لو عـرف الانسـان مقـداره
لم يفخـر المولى على عبـده

نعم ولم يغتر بنفسه فيضعها فى موضع العظمة والجبروت ويدخل فى رأسه من الآمال والامانى مالا يكون لأهل التخليد فى الحياة ويتهالك بها على الاطمـاع والرغائب بمالا يحده حـد ولا تنتهى اليه غاية كأنما الوجود قد سخر له وكأنما الكائنات قامت لحاجته وانتظمت لتجـرى على ارادته وما فى الناس الا من ينطبق عليه حال الشـاعر فى وصـفه لنفسه وتلاعب الخيالات برأسه حيث يقول .

ولكن قلباً بين جنبىّ ماله

أو قوله مثـلا

أريد من زمنى ذا ان يبلغنى
ما ليس يبلغـه فى نفسه الزمن

وترى فيهم من لا تقنع نفسـه بملك العـالم وهو فى الحضيض الاسـفل ولا ترضى باكتناز افلاذ الارض وهو على حافة القبر وكانهم أخذوا على الدهر عهـدا وموثقا بالبقـاء الى الابد ودوام الحيـاة طول الامد يتعاظمون بأنفسهم على سـائر الخليقـة زورا وبهتانا وهم أضعف خلق الله أركانا ولو علموا بحقيقتهم فى الوجود لهانت عليهـم نفوسهم وصغرت فى أعينهم أقدارهم وسهلت عليهم معايشهم وسكنت أحوالهم من هذا الاضطراب الدائم فى العمل الباطل .

(*) مصباح الشرق ، العدد ٢٢٢ ، السنة الخامسة ١٧ جمادى الثانية ١٣٢٠هـ ، ٢٠ سبتمبر ١٩٠٢ ، ص ١ ، ٢ .

ومن يقرأ ما جادت به قريحة أحد كبار الفلاسفة من الغربيين في مناسبة حوادث البراكين في « المارتينيك » هذه الايام هانت عليه نفسه بعد العظم وصغرت في عينه دنياه وتجلت له الحقائق التي يغفل عنها ويذهل دونها بالخيالات الباطلة والآمال الفاسدة قال :

انا لنلهو بسفاسف أمورنا ونغفل عما يجرى أمامنا من ذلك الحادث العظيم فلا نقرأ الاخبار عنه لقلة العناية والاهتمام به الا كما نقرأ الاخبار المختلفة عن الوقائع اليومية التي لا ارتباط لنا بها ولا علاقة لها بشؤوننا مع انه ربما كان له من النتائج العظمى في وجود الكرة الارضية وكيانها ما تذهل له العقول وتقف عنده حركة الافكار .

وهل نحن في ثقة من سلامة العالم اذا حدث ما يتوقع وانخسفت هذه الجزيرة التي تبلغ في طولها أربعة وستين كيلو مترا وهوت الى جوف الارض من وراء البحار فانمحقت من الوجود .

وأي ثقة تكون لنا وأي ضمان وكيف لا ترتعد منا الفرائض وترتجف القلوب اذا تذكرنا أن هذه القشرة المتجمدة عن الذوبان فوقها الفاصلة بيننا وبين المادة المتأججة المكونة لجرم الكرة الأرضية لا تبلغ في كثافتها بنسبتها الى حجم الأرض الا ما تبلغه الورقة الرقيقة من حجم تفاحة أو رمانة تغلفت بها .

نعم ان الانسان لم يعهد منذ بدء تاريخه في هذه الورقة الا المقاومة بصلابتها ومتانتها ماعدا بعض نقط معروفة ولكن لا يمكن أن يتخذ ذلك دليلا ثابتا وبرهانا قائما على انها تستمر في تلك المقاومة الى نهاية الابد

هذا وليس يخفى أن سطح الأرض الذي يبلغ خمسمائة وعشرة ملايين كيلو متر اذا وقع في بعض انحائه ضغط وزحم على ما تحته من الدائرة الباطنة فانخفض من قطرها مقدار ملليمتر واحد فقط حدث انبثاق من خلال تلك القشرة المتجمدة تنبعث منه كمية عظيمة من المادة

المتأججة تكون كافية لأن تمد خمسمائة فوارة بركانية وعشرا تقذف كل واحدة منها بمقدار كيلو متر مربع من السوائل المعدنية .

فماذا ترى أيها القارىء فى شأن قوم يسكنون فوق هذه القشرة على ما خيلناه لك ويظنون أنهم مقيمون فى أمان ودعة ثاوون فى راحة وسكون . وماذا يكون حكمك اذا فى عاقبة الأمر لهذا الخلق اذا تعدى مثل ذلك الضغط على قطر الدائرة الباطنة مقدار المليمتر الواحد الى الاثنين أو الى الثلاثة .

كما أنه لا يخفاك أيضا أن عدد جبال البراكين التى دلت على اتقادها واضطرامها بيننا من مدة ثلاثة قرون تبلغ ثلثمائة وعشرين جبلا وأن التى بقيت منطفئة خامدة بعد الاضطرام تبلغ أربعمائة بركان ومن المعلوم انه لا شيء أسرع من رجوعها الى الاضطرام والاشتعال كما يشهد بذلك جبل « بيلى » وجبل « الفيزوف » الذى لم يكن أحد يرتاب فى سكونه أو مدينة « هركولانوم » ومدينة « يومبى » . فاذا تحقق حدوث هذا الضغط الذى حكينا عنه اضطرمت البراكين كلها مرة واحدة على وجه الأرض بغير نزع ولا جدال .

ولقائل أن يقول هنا ان هذا الحادث بعيد الوقوع لا ينتظر تحقيق حدوثه . فنجيبه قد يجوز ذلك ويحتمل ولكن من الذى يمكنه أن يثبت ذلك على وجه التحقيق والتوكيد ومن الذى يقدر أن يقف على كنه العاقبة التى تنشأ عن زوال جزيرة « المارتينيك » من الوجود .

والثابت المقرر عند جماعة العلماء من قبل أن القشرة الأرضية من عند جزائر « الانتيل » بهارقة ووهن وقابلية للانفساخ وقد تبين الآن انه انفرجت فيها ثغرة فى جزيرة المارتينيك اتصلت منها مياه المحيط بالجرم المضطرم من باطن الأرض ومن هناك تولدت الابخرة وتصاعدت فقذفت فى انطلاقها بتلك السوائل المعدنية والكتل الصخرية والغازات المختلفة فدمرت جزيرة « سان بيير » وما جاورها من الجهات .

فهل علم لأحد الى اليوم ان تلك الثغرة قد انسـدت أو أن باطن الطبقة الأرضية فى « المارتينيك » قد جف ويبس • لم يقع ذلك فى علم أحد ولا يمكن لأى عالم من العلماء أن يثبته ويؤكده لنا بدليل ان الثوران لا يزال واقعا متجددا فيها وفى جزيرة « سان فنسان » آنا بعد آن على ما تكشفه لنا الاخبار •

وهل يعلم لنا اذا اتسعت تلك الثغرة فتقوضت جزيرة « المارتينيك » وهوت الى بطن الارض ان كانت تسـد تلك الثغرة أو تزيد فى الاتساع زيادة عظيمة بثقل جرمها فتنصب من ورائها مياه المحيط وهنالك يقـع ذلك الضغط الذى ذكرناه من أثر هذا الثقل فتتولد الابخـرة وتنطلق بما يتبعها من المواد فتشتعل البراكين الكامنة وتضطرم البراكين الخامدة فيتصدع •

فاذا تم ذلك وعم وغمرت المادة المتأججة سطح القشرة المتجمـدة كما كان ذلك فى عهد بداية الهيئة الأرضية ذهب الخلق وانقرضت الانس وتناولت النيران الكامنة فى بطن الأرض ما على ظهرها من حيوان أو نبات

وما نظن ان الذى ينظر الى الامور نظرا عاليا ويرتفع فى بحثـه الى الدرجات الرفيعة يرى لهذا الحادث شأنا عظيما فى الوجود أو أهمية كبرى فى الكون على هول وقعه وفداحة خطبه بين بنى البشر • نعـم ان الامور كلهـا نسبية فان كانت نسبتنا لأرضنا تجعل هذا الحـادث عند وقوعه أعظم حوادث الوجود وأشدها لدينا الا انه لا يفوتنك ان هـذه الكرة الارضية بما تحتها وما فوقها هى بالنسبة الى عالم السموات الذى يحتوى على المليارات والمليارات من الكرى التى تماثلها كحبة خـردل فى الصحراء وقطرة ماء فى محيط الدأماء • فان كان شأن عالمنا بالنسـبة الينا جسيما عظيما فشأنه على ما تراه بالنسبة الى عالم الوجود شىء حقير مهين وشأننا فيه أحقر وأهون • وما عسى أن يكون شأن قوم يخفى على الابصار وجودهم ولا تدرك الانظـار مكانهم على بعـد مائة كيلو

متر أو مائتين ولا تحس فى هذه المسافة القصيرة بشىء كائناً ما كان من حركة أعمالهم وفعالهم ومظاهر حضارتهم وعمرانهم •

فقل لى بعيشك ما هى منزلة هذه المسافة التى تقدر بمائتى كيلو متر فتحجبنا من الوجود بالنسبة الى عالم الفضـــاء الســـماوى وانت تعلم أن المسافة التى تبعد بنا عن أقرب الاجرام السماوية الينـــا وهـــو القمر تتجاوز ثلثمائة وأربعين ألف كيلو متر ولا ينقص مقدار ما بيننا من البعد وبين الشمس عن مائة وثمانية وأربعين مليون كيلو متر •

ومن هنا يمكن لك أن تدرك فى جانب هذه المقادير أن هلاك الف وخمسمائة مليون من نوع الانسان الذى بوقوع حادثة من مثل ما ذكرناه لا يكون شيئا محسوسا فى الوجود ولا يعتبر حادثا مذكورا فى الـــكون ولا يتولد عنه أدنى تأثير فى نظام الكائنات ولا تتوقف له الشمس عـــن حركتها ولا يختل من أجـــله سير الكواكب فى دورانها بل تبقى الاجرام السماوية بعد زوالنا وزوال أرضنا على ما هى عليه تتنقل وتدور وتتحرك على مقتضى نظامها كأن لم يحـــدث فى الوجود حـــادث ولم يقع فيـــه أمر جـــديد •

فما أجدر هذه الحقيقة بأن تعرفنا بمقدار انفسنا فى الوجود وأن تظهر لنا بأننا فيه كلا شىء وان انقراض النوع الانســـانى من وجـــه البسيطة بوقوع مثل الحوادث التى حصلت بجزيرة المارتينيك فى انحائها لا يكون له أدنى أهمية •

واذا كان هذا الخطب المنتظر ليس بذى أهمية ولا شأن عظيم فى الوجود فهل هو فى الحقيقة له شأن عظيم لدينا • لا ندرى ما كنه هـــذه الأهمية ولكن الذى نعلمه أن هذه الحوادث لو حدثت على حين فجأة كما ما يحيق بنائم لا تلبث المـــادة المضطرمة ان تخمـــد بعد انتهـــاء دورة وقع فى جزيرة « سان بيير » لا يلبث أن يتغطى سطح البسيطة بالسوائل المعدنية فى بضع دقائق وينتهى الامر كله فى زمن لا ندرك فيـــه لقصره

الضغط فيتكون منها قشرة متجمـدة أيضا ويعود السكون على وجـه الأرض وترجع حالتها الى ما كانت عليه ولكن بنقصان الحيوانية منهـا

ومن هذا يتبين أن الأمر صار فى كرة القمر على مثل هـذا النحو فأصبحت أرضه كلها صحارى وأودية لا نبات ولا حيوان فيها وانتشر فوقها من البراكين ما تبلغ فوهة بعضها أربعـة وعشرين كيلو مترا ومن الاغوار ما تبلغ اعماقه عدة كيلو مترات . وليس يمكن بعد ذلك لاحـد أن ينكر أن أرض القمر كانت مسكونة بأنواع من الحيوان والانسان مثل أرضنا هذه قبل أن تنبعث المادة المضطرمة من بطن أرضه الى ظهرها .

ثانيـا : نقـــــــــد النص

١ ــ حديث عيسى بن هشام

أو فترة من الزمن لمنشئة محمد بك المويلحى

ط • ثانية على نفقة الشيخ محمد سعيد الرافعى الكتبى بمصر

(سنة ١٣٣٠ هـ) *

منشىء هذا الكتاب من كتاب الدرجة الأولى فى مصر بل فى البلاد العربية كان نشر مقالات متتابعة فى جريدة مصباح الشرق خيالية فى الظاهر وحقيقية فى الباطن وصف فيها حال مصر فى اخلاقها وعاداتها ثم جمعها فى كتاب اعيدت طبعته الأولى قال فيه أما بعد فهذا الحديث حديث عيسى بن هشام وان كان فى نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال مسبوك فى قالب حقيقة حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وان نصف ما عليه النـــاس فى مختلف طبقاتهم من النقائص التى يتعين اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها وقد وفى الكاتب بهذا الغرض من كل وجه فمثل حياة مصر الاجتماعية ولاسيما أهل السرف والترف من بينها وربما بالغ فى الاحـــايين فى ذلك للتأثير فى قلب القارىء بقوة البلاغة التى كثيرا ما يعمد الى التشجيع فى ابرازها ولكنه سجع لا أثر للتكلف فيه على الجملة يدل على علو كعب المؤلف فى الادب ومبالغته فى التنميق والتنسيق • وقد رأينا بعض الالفاظ لا تلتئم مع تلك الدرر والغرر منها •

فى ص ٣٣ يرتكن على توقد ذهنه و ١١٢ ارتكانا على نهار أصومه و ١٥٧ كنا نرتكن عليه ص ٥٧ فلا يابهون بها و ٢٠٠ كنت آبه بها ص ٦٤ المقاطعة على الشاهد ص ٦٨ امتثلت لنصائحك ص ٧٣ امتلأ الباشا تعجبا واندهاشا ص ٧٩ كان يضرب بغنائى (غناى) المثل ص ٨٧ سيما الرضاء بالمقســـوم ص ١٩٠ أخذت هذا الحانوت ص ١١٥ لا يثقون

(*) المقتبس الجزء السادس المجلد السابع ١٩١٢ ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .

ببعضهم بعضا • وفيها تحرير الأوراق وتسطير الصكوك و ١٣٦ حرر طلبا ص ١٢٥ تحصلت عليها بطرق مختلفة • يتحرى عن مسألة ١٣٧ صعد ثانيا الى السلم فوجدناه مزدحما بجملة اناس ١٨٦ سبب الهلاك والنجاء (النجاة) ٢٦٣ أسرعت بالخروج أطلب النجاء ١٨٨ احتذاء لما ترسمه ظروف الأحوال ٢٠٢ وهو بالسن الذى لم يصل فيه بعد الى التمام ٢٠٧ لكنما الأضمن عندى ١٢٠ وهؤلاء المتشدقون ٢٤٤ لا يؤثر عليهم ٣٢٢ فاحصى ما فيـــه عدا ٣٧٩ رأس متصدعة ٣٩٦ نستفيد من واسع علمه أمورا شتى مسافة من الزمن ٤٠٧ بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها ٤٢٨ وعدنا لى المدينة وقد مد من الغروب حبالته ليقتنص من الأصيل غزالته فتفرقت نفسها شعاعا ٤٤٤ طلب منى أن نحى الليلة بالسمير وان اقتلها معه بالسهر ••• الخ •

ومن هذه الألفاظ والتراكيب ما هو بعيد عن مناحى الفصحاء دخيل فى اللغة أو ضعيف فى التركيب ولفظه فى غير موضعه ولعل المؤلف الفاضل يعيد نظره فى هذه النقدات فان منها ما هو من لغة الجرائد ومنها ما هو من اللغة الطمية المصرية ولعله لا يضن على الاداب بنفثاته بعد اليوم فهو من أعظم الناعين على الموظفين فعسى أن لا تشغله الوظائف عن معاناة الكتابة لانارة الأفكار كمـــا شغلت غـــيره ممن أبتلوا مؤخرا فى مصر بالتوظف فطلقوا الأقلام طلاقا بتاتا •

٢ ــ حــديث عيسى بن هشـــام

* محمد (بك) المويلحى

الطبعة الرابعة مع الرحلة الثانية

رأت وزارة المعــارف أن تقــرر « حديث عيسى بن هشام » فى مدارسها الثانوية للسنة الرابعة والخامسة ، فطلبت من مؤلفه محمد بك المويلحى أن يطبع لها الطبعة الرابعة منه وان يضيف اليها الرحلة الثانية الموعود بها • فقام بالأمر أحسن قيام وتم طبع الكتاب طبعا متقنا وستوزعه الوزارة على مدارسها فى هذا العام •

ولسنا نرغّب القراء فى اقتنائه بأكثر من أن نذكر لهم بعض ما جاء فى تقرير لجنة وزارة المعارف التى انتدبت لفحصه • قالت :

« وقد ذهب مؤلف الكتاب مذهب القصص وأجرى الكلام فيه على جهة التخيل والتمثيل ، حتى إذا عرض لرذيلة من الرذائل الشائعة جــلا مكانها ، وصور آلامها ، وتمثل المنغمسين فيها من أهل الغفلة والضلالة ، وراح يشرح عقلياتهم ، ويتتبع مزالقهم فيها حتى ينحط بهم الى قرارة الهاوية • وهذا كله أجراه بأسلوب فكه مشوق يصــور الذقائص أبلغ تصوير ، ويبشع المقابح أعظم تبشيع » •

« أما عبارة الكتاب فهى على حظ من البلاغة جليل : حلاوة لفظ ، ورشــاقة عبــارة ، متــانة تــركيب ، وقــوة تأليف ، وقــد تنــاول الكلام كثيرا من أفكار العصر ومستحدثاته فأداها أفضل أداء وعبر عنها بفصيح العربية أبدع تعبير » •

(*) المقتطف ، أول مارس ١٩٢٨ ، ص ٣٤٦ وتمييز الكلمات من عندى •

٣ ــ حـــديث عيسى بن هشـــام

* محمد بك المويلحى

هذا الكتاب مشهور فى مصر مضى على طبعته الأولى نحو ٢٠ سنة وجمهور القراء يقبل عليه • وهو الآن فى طبعته الرابعة قد عنيت مطبعة مصر باخراجه فى أبهى حلة يمتاز بغلاف أنيق وطبع ناصع •

ومن اسم الكتاب يتضح للقارىء النزعة التى نزعهـا المؤلف من الجرى على طريقة الحريرى والهمـدانى فى تحـرى الفكاهة والتزام السجع أحيانا • ولكنه يختلف منهما من حيث أنه لم يكتب كتابه مقامات منفصلة بل جعله ميدانا يعرض فيـه لنقـد الحياة المصرية • فموضوع الكتاب واحد وان تعددت الوجهات التى ينظر اليها من هذه الحياة كمـا يتبين من عنـاوين الفصـول : الشرطة أو البوليس ومحكمة الاستئناف والأعيان والتجار والعمدة فى المطعم والمدنية الغربية ••• الخ •

ويقول فى المدنية الغربية :

« قال عيسى بن هشام ــ وما وصلنا الى البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه • يحاول أن يشتفى بالرقاد من غمه وهمه • فتركته فى غرفته • ورغبت فى النوم كرغبته • وبينا أنا غريق فى المنـام • أسـبح فى بحر الأحلام • اذ سمعت الباشا ينادينى نداء متتاليا • فقمت اليه مسرعا وملبيا • فأخبرنى ان طول التفكر نفى عنه الرقاد • وأورثه الارق والسهاد • وطلب منى أن نحيى الليلة بالسمر • وأن أقتلها معه بالسهر • فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث • ومن قديم فى الزمن وحديث • الى أن صرت الليلة فى أخريات الشباب • فاستهانت بالازار

(*) الهلال ، أول مارس ١٩٢٨ ، ص ٧٩ •

والنقاب • ثم دب المشيب فى غوْدها [١] • وبان أثر الوضح فى جلدها [٢] فبعثت بالعقود والقلائد • من الجواهر والفرائد ونزعت من صـــدرها كل منثور ومنظور • من درر الكواكب ولآلىء النجوم • وألقت بالفرقدين من أذنيها • وخلعت خواتم الثريا من يديها • ثم مزقت جلبابها • وهتكت حجابها » ••• الخ •

وأسلوب الكتاب على هذا النســـق ونحن وان كنا نرى ان السجع قد ذهب أوانه فاننا مع ذلك نحمد للوزارة تقرير هذا الكتاب للمطالعة فى مدارسها لما فيه من فكاهة ونقد فهو بلا ريب من عيون الآثار الأدبية التى ظهرت فى مصر فى نهضتنا الأخيرة •

---

(١) الفود : معظم شعر الراس مما يلى الأذن .
(٢) الوضح : بياض الصبح .

٤ ــ حــديث عيسى بن هشـــام

محمــد بك المويلحى

* عباس محمود العقاد

فى هذا الكتاب التقى نمطان من الكتابة غير قريبين ، وهما نمط الكتابة العربية التى كانت تتخذ « المقامة » مثلها الأعلى فى بلاغة المنثور ، ونمط الكتابة الأوربية التى تعنى بالنقد الاجتماعى ووصف المشاهد والأحوال .

وكان ظهور هذا الكتاب لاول مرة منذ ثلاثين سنة ، أى فى الوقت الذى أخذت فيه الآداب العربية القديمة تظهر وتنتشر بين القــراء واخذ الادباء يطلعون على أطراف من الآداب الاوروبية يدخــل معظمها فى باب الروايات والفصول والنتف الفكاهية مما تنشره الصحف والمجلات . فجاء الاديب المويلحى فى شبابه يجمع بين المثلين ويلاقى بين الطــرفين ويحذو حذو النقاد من الافرنج فى الوصف الاجتمــاعى عــلى أسلوب الفكاهة . فتم له من ذلك نصيب طيب وحظ جميل .

أخذت المنثورات العربية فى الشيوع منذ نيف وثلاثين سنة فــلم يكن غريبا أن تنال « المقامة » الحظــوة عنــد قراء ذلك العصر وتنزل لديهم فى منزلة لا تدانيها الرسائل الســهلة والأساليب المطبــوعة التى لم تبدهم ببريق من الزخرف وترويق يخطف الابصــار ويصدف بهــا عن بســاطة المعانى وصدق الاداء . لان العين لا تحتــاج الى معــلم يهديها الى اختيار الالوان المزوقة والأوضاع الملفقة لاول وهلة ، ولكنها تحتاج الى من يعلمها جمال البساطة ودقة المعنى والأعراض عن الظواهر الى ما راءها من الجوهر النفيس ، فلم يكن غريبا كما قلنا أن تســبق

(*) البلاغ الأسبوعى ، العدد ٦٦ فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٨ ، ص ١٢ .

دولة « المقامة » دولة الاسلوب السهل المطبوع فى الكتابة العربية ، كما لم يكن غريبا أن تشيع بين الشرقيين بهارج الألوان فى الملابس والتحف قبل شيوع هذا الذوق الحديث الذى لا يؤخذ بتلك البهارج كما كان يؤخذ بها آباؤنا منذ جيل أو جيلين ، فالمقامة هى « المقصّب » فى عالم الكتابة أو هى الكلام ذو العذبات والهيادب الذى يبهر « الريفيين » فى أسواق البلاغة ، ولا بد لها من دولة تغلب فيها على كل دولة فى ازياء الكلام ثم تنقضى عاجلا لتخلفها الزينة النقية والجمال القيم البسيط .

على اننا لا نريد ان نظلم « المقامة » حقها أو نجردها من فضل السبق الى وصف المشاهد والاحوال على أسلوب الفكاهة قبل أن يظهر له مثيل فى الآداب الاوربية الحديثة ، فربما عثرت فى بعض المقامات — ولا سيما مقامات البديع — على وصف للاخلاق والنماذج يرجح بما فيها من نكات اللغة ويغطى على ما فيها من اعتساف للفوائد وتفيهق بالغرائب ، وفى المقامة المضيرية مثلا وصف لاخلاق طائفة من التجار لا يشق عليك أن تجد مصداقه اليوم بين « أبناء البلد » من تجار احيائنا العتيقة ، **فلولا المبالغة التى أغرم بها البديع لكان فى طليعة الوصافين للنماذج والحالات النفسية التى عنى بعرضها نقاد الغرب المحدثون** ، ولكنه سابق فى هذا المعرض لا ينكر عليه فضله ولا يجهل عذره .

كذلك لا نريد ان نظلم السجع أو نغلو فى انكاره كأنه مكروه لذاته أو كانما لا موضع له من الكتابة يحلو فيه ويستساغ مذاقه ، فحكم السجع فى المنثور كحكم القافية والوزن فى المنظوم وجماله هنا كجماله هناك بلا خلاف ، وانما يقبح السجع حين يلتزم التزاما يذهب بصدق المعنى ويثقل الكلام بقيود التكلف وزخارف التلفيق ، فاذا سلم من هذا فهو حلية مستحبة قد تتفق للكاتب اتفاقا وقد يقصد اليها قصدا وهى على الحالين ليست مما يعاب ان لم تكن من الزينة المرضية والذوق المقبول .

فلك أن تقول ان أديبنا المويلحى هذب المقامات فاضاف اليها شيئا من روح العصر وقصد بها الى غرض من الأغراض الفكرية ، ولك أن تقول انه احتذى فيها مثالين : مثال البلاغة المنثورة كما بدت للناس فى أول بعث الكتابة العربية منصرم القرن الماضى ، ومثال الأغراض الاوروبية كما يعرفها المطلع على روايات الغرب وأساليبه الفكاهية فى الوصف والانتقاد . الا أن أمراً لا ريب فيه هو أن مثال المقامة كان حاضرا فى ذهن الاديب حين كتب فصوله واسند حديثها الى عيسى بن هشام مرجع البديع الهمذانى فى مقاماته ، وأمرا آخر لا ريب فيه كذلك هو أن كتاب المويلحى لم يكن ليكتب على هذا المثال لو لم يكن صاحبه من المطلعين على الأدب الاوربى والمستعدين للنقد والملاحظة على الاسلوب الجديد .

فحديث عيسى بن هشام قطعة حية من الادب المبتكر الصادق لا تقليد فيه الا فيما التزمه صاحبه من محاكاة المقامات فى الوضع والصيغة ، فاذا تجاوزنا ذلك فهو فى منحاه تصوير حسن ظريف للحياة المصرية لا تزال شواهد صدقه بادية الى اليوم فى كثير من الاخلاق والعادات ، ومن مآثر المويلحى ان فتنة الترويق لم تغوه فى معناه كما أغوته فى لفظه ، فانه لم يحاول قط ان يثقل بساطة الوصف بما يخرج به عن الحقيقة أو يشوه محاسن الصورة الموصوفة ، وان هذه البساطة لمأثرة تشف عن سلامة ذوق وصفاء طبع وتوحى الينا ان عيب « المقامات » انما كان عيب عصره لا عيب سليقته المجبولة على فهم البسيط وتقدير جماله فى معناه .

ان « حديث عيسى بن هشام » كتاب حى لانه يمثل لنا الحياة فى جيل من أجيال الامة المصرية ويسجل معالم ذلك الجيل وسماته فى عالم الادب وعالم الاجتماع ، والكتاب مصرى الموضوع مصرى التأليف مصرى الملكة مصرى الروح لا يعدله فى هذه الصفة أثر غيره من آثار العصر الحديث ، فإذا كانت القراءة الاوربية قد الهمت صاحبه العناية **« بالنقد الاجتماعى »** فالملكة التى اعتمد عليها فى نقده انما هى ملكة

مصرية معروفة بين بيئات هذه الامة منذ أقدم العصور ، والمصرى مفطور على هذا الضرب من « الانتقاد » أو من « الانتقاض » والاعتراض كما يسميه العامة ويفرطون فيه الى ان ينكروه ويتخوفوا التحريم والالتيام ، ولست أعجب لهذه الملكة فى المويلحى — وهو عربى الاصل — لان العرب يشبهون المصريين بعض الشبه فى التهكم والدعابة ، ولان هنـاك ملكات أخرى بها ان تعد من ملكات البيئة لا من ملكات الافراد ومنها الملاحظة والانتقاد أو « الانتقاض » عند طوائف المصريين ، فالمويلحى حين يأتى بالحلاق الذى ينتظر دينه على صاحب القصر ويلقى على لسانه قوله : « انا بن جلا وطلاع الثنايا ، وكم لصنعتى من منافع ومزايا • وليتنى كنت شوهت خلقته ، ومسـخت سـحنته ، فنتفت شـاربه ، وحلقت حاجبه ، تالله لا خذن بناصيتى هـذا الثقيـل البارد ، ولا سدن عليـه المصادر والموارد ولالزمنه صباح مساء ولو حلق فى الهواء » نقول ان المويلحى حين يلقى على لسان الحلاق هذا الكلام لا يصف لنا الروح المصرى بتمثيل حلاقه كما يصفها لنـا بنكاته هو وتجنيساته ، فان من خصائص النكتة المصرية انها تولع بالجناس اللفظى وتتناول القـريب من الفكاهة وتلتفت الى مناقضات الاشـكال والكلمات أشد من التفاتها الى مناقضات الدخائل والمعانى ، وهذه الخاصة ظاهرة فى ملاحظـات الكتاب كلها فلا تكاد فى فصل أو صفحة •

والى جانب هذه الملكة — ملكة الملاحظـة والانتقاد — بقابلك من الكتاب نقص عجيب فى ملكة التعليل وملكة الخيال ، فانظر مثلا الـى هذا الحوار بين الصديق والحـكيم عند تعليل العناية بالتصوير بـين الغربيين واهمال هذا الفن بين الشرقيين • يقول الصـديق « اننى كلما نظرت الى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والعكوفية الى هذا الحد ثم نظرت الى قلة العناية به عندنا حرت فى معرفة السبب فان كان ذلك ناشئا عن الترقى فى المدنية فاننى أراه فيكم قديما منـذ جاهليتكم الاولى كما أراه والمدنيـة مسفرة بينكم وربما كان القـديم ابدع من

الحـديث ، مع أن أهل الشرق على ما تعلمون أوسع مجالا فى الخيـال وابعد شاوا فى التصوير ، فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا » .

فيقول الحكيم « أن أهل الغرب كانوا قبل الذين المسيحى أهل عبادة للاوثان والاصنام فقضى الاعتقاد الدينى باتقان الرسم والتصوير واتسع نطاقه على الاخص فى الدولة الرومانية حتى تعدى التصـوير تماثيل الاله الى تماثيل الخلق . فاقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الابطال .

ولمـا دخل الدين المسيحى على هذا الحال لم يحظرها ولم يحرمها فاستمر الناس على ما الفوه وتناولوا الدين المسيحى نفسه بفن النقش والتصوير ... بخلاف الدين لاسلامى عنـدكم فانه حظر التصوير فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الامم الاسـلامية ، والا فهو منتشر فى الشرق انتشاره فى الغـرب بين الامم الوثنيـة كالصينيين واليابانيين والمجوب من أهل الهند » .

فالغربيون اجادوا النحت والتصوير لانهم وثنيون ، والشرقيون لم يجيدوا هذين الفنين لانهم لم يكونوا وثنيين أو كانوا وثنيين ولكنهم لم يجيدوا النحت والتصوير .. ! ان هذا التعليل لعمرى لهو أعجب من الاختلاف بين الشرق والغرب فى اتقان الفنون . فلماذا عبد الغربيـون الاوثان ولم يعبدها الشرقيون أو لماذا اشتركوا فى العبادة ولم يشتركوا فى مظاهر الاتقان ؟ أو لماذا حرم الاسلام الصور ولم تحرمها المسيحية ؟ هذا هو اللغز وهو عند عيسى بن هشام هو الحـل والتفسـير .

أما الخيال فلم يستطع المؤلف أن يستنصر به فى فكرة واحدة يبنى عليها أسـاس كتابه . فقد بدأه بانه رأى فى « المنام كانه فى صـحراء الامام ، يمشى بين القبور والرجام فى ليلة زهراء قمراء يسـتر بياضها نجـوم الخضراء .... وبينما هو يتأمل فى عجائب الحـدثان ويعجب

من تقلب الازمان مستغرقا فى بدائع المقدور ، مستهديا للبحث فى اسرار البعث والنشور ، اذا برجة عنيفة من خلفه كادت تقضى بحتفه • فالتفت التفاتة المذعور ، فرأى قبرا انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة عظيم الهامة •••• ثم دار الحديث بينهما وجرى على نحو ما تسمع وترى •

وسأله (الدفين) ما اسمك أيها الرجل ؟ وما عملك ؟ وما الذى جاء بك ؟ فقال فى نفسه حقا ان الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين فهو يسأل على أسلوبهما » ثم عرفه وطاف به العاصمة مجلسا مجلسا وغشى معه المحاكم والدواوين ورفعا القضايا وفصل فيها القضاء وانتقلا الى ديار الغرب وجرى فى أثناء ذلك ما جرى من حديث مفصل مبوب لا يشبه اضغاث الاحلام ولا أحاديث النيام ، وهو فى كل ذلك نائم حتى قال بعد ستين وأربعمائة صفحة من القطع الكبير « ولم يبق لنا بد فى هذه الحال من السفر والانتقال فاستخرنا الله فى العودة الى ديارنا والاوبة الى أوطاننا والحمد لله باطنا وظاهرا أولا وآخرا » وهو لم يصبح بعد من تلك النومة كما صحا الباشا الدفين من هجعة الحمام !

فلو أن الاستاذ الويلحى بنى القصة على سيرة رجل رآه بعينه ينشق عنه القبر لكان ذلك أسوغ من هذا المنام الطويل العجيب المستحيل ، لانه كان يعرض علينا معجزته فى هذه الحالة على انها شىء دعى اليه سياق القصة وهو يعترف بأنه شىء لا يقبله العقل ، فنحن نقبله على هذا الوجه مرة واحدة ولا نرى فيه محاولة الذى يخدعنا بتصديق ما ليس يحتمل التصديق ، أما أن يظن انه اجتنب معجزة الانبعاث من الموت واتى بخيال سائغ فى العقل ثم هو يأتى بمعجزة أخرى لم تكن قط ولن تكون ابدا فى عالم الواقع فهذا شبيه ممن يجتنب الهاوية ليقع فى هاوية الى جانبها ، وكأنه يقول لنا : « معاذ الله ان ادعوكم الى تصديق قيام الميت فى هذه الدنيا من بين

القبور » ثم هو يقول لنا بعد ذلك « صدقوا ان النائم يشهد مثل هذا الحلم المستحيل » فلا يصنع الا أن ينتقل بنا من مستحيل الى مستحيل والا ان ينزهنا عن تصديق المعجزات ليكرهنا بعد ذلك على تصديق هذه المعجزات .

فالخيال والتعليل ملكتان ضعيفتا الأثر فى « حديث عيسى بن هشام » ولكن الحديث كما أسلفنا عنى بالملاحظة المصرية وصدق الوصف وتمثيل جيله وكثير من بقاياه فى هذا الجيل ، وهو جدير ان يعاد طبعه للمرة الرابعة وان يعاد طبعه مرات بعد هذه الطبعة ، بل نحن نثنى على وزارة المعارف لتقريرها اياه فى المدارس الثانوية لانه يفيد التلامذة فى مادة اللغة وتجارب الحياة ولا يضرهم بشىء اذا استدرك المدرسون على ما فيه من مواضع الاستدراك .

عباس محمود العقاد

٥ ــ محمد بك ابراهيم المويلحى

وحــديث عيسى بن هشــام

* « صــاد شــين »

« يكتب فى جريدة البصير باسكندرية أديب جم الأدب مثقف البيان يمهر رسائله الممتعة « صاد شين » وهو ان اختفى وراء هذا اللقب المستعار فالقمر لا يخفى سناؤه على الناظرين والعارفين ، وقد كتب الرســالة الآتية عن المرحوم محمد بك المويلحى بمناسبة حفلة تأبينه فرأينا أن نتحف بها قراء الكوكب .

ونحن ننتهز هذه الفرصة لاظهار اعجابنا وتقديرنا بما يكتب هذا الفاضل الأديب من الرســائل البليغة والمباحث الدقيقة بذلك الاسلوب الرائع اكثر الله من أمثاله » .

(كوكب الشرق)

يحتفلون فى القاهرة اليوم بتكريم ذكرى فقيــد الأدب ، الكاتب الأكبر المرحــوم محمد بك ابراهيم المويلحى صــاحب « حديث عيسى بن هشام » وكان قد قبضه الله الى رحمته فى أول شــهر مارس من هذا العام وعمره سبعون عاما ونيف قضاها حياة حافلة بالعمــل الناضج بين أدب وسياسة وادارة . وللأدب على ســائر الأعمال العقلية ميزة جلية هى تخليد اسم صاحبه على الزمان ، بينما ما سواه تطويه يد النسيان أو تحصر ذكره فى دائرة خاصة . والفقيد الأديب قد جلى فى مضــمار السياسة ابان الثورة العرابية والاحتلال باشتراكه مــع الثوار وحملته على العهد الجديد كما جلى فى مضمار الادارة ، وقد وصل الى منصــب مدير ادارة الاوقاف حتى عام ١٩١٥ ، ولكن حياته الأدبية هى التى حملت

(*) كوكب الشرق ، العدد ١٦٦١ فى ١٥ يونيو ١٩٣٠ ، ص ١ .

اسمه على جناحى الشـــهرة وأذاعته فى العالم العـــربى فكان ولا يزال صاحب « حديث عيسى بن هشام » •

* * *

كان الفقيد الأديب صحافيا راقيا فى عصر كان الكاتب البســيط فيه موضع الاحترام والاعجاب ، وكان القراء قليلين جــدا والصحافة محصورة فى نشرات محدودة معروفة ، والنهضة فى أول بزوغها والقــوم يقبلون كل ما ينشر وما يكتب ، ولكن المويلحى رحمه الله لم يكن يرضيه هذا التســاهل من الكتاب والقراء لان نفســه فطرت على الأدب والفن وتمكن من اللغة تمكنا بليغا رفعه الى مســتوى كبار الكتــاب الأقدمين فلم يكن ليرسل بنات أفكاره الا فى عبارة ناضجة متينة لا نزال الى اليوم نعجب بها اعجابنا بكل ما كتب السلف الصالح من الذين ســلك سبيلهم وائتم بهديهم •

ولم يقنع من الصحافة بأخبار السياسة العامة حتى قرنها بالفصول الأدبية الشائقة واتخذ عصره ميدانا للنقد فعمــل على تقويم ما أعوج من أخلاقة وشذ من عاداته شأن الأديب الكبير فى كل مكان وزمان • وهذه الفصول الرائعة فى تسلسلها واختلاف مواضيعها يتكون منها كتــاب هو « حديث عيسى بن هشام » •

أما موضوع الكتاب فهو أن عيسى بن هشام كان ذات ليلة يطــوف المقابر للاتعاظ والاعتبار اذ بعث له دفين يخاطبه فعلم منه انه « أحمــد باشا المنيكلى » ناظر الجهادية المصرية ، فلازمه وصحبه وجاء معه الى القاهرة حيث جرت لها حادثة مع أحد « الحمارة » أفضت بهما الى دار الشحنة (الكركول) ثم الى النيابة فالمحكمة الابتدائية فمحكمة الاستئناف ثم ألجأته الحاجة الى المطالبة بأوقافه الكثيرة فلجأ الى المحاكم الشرعية ثم اضطره الطاعــون على الهرب المــى الاسكندرية ثم قفل راجعــا الى مصر وأخذ مجالس القوم من أدباء وتجار وعلماء ورؤســاء وأمراء

ثم حضر الأعراس واندس فى المشـــارب والمطاعم يتســـقط أحاديث القوم من أهـــل الريف وأهل الحضر • وذهب الى المراقص يرى ما تفعله البغايا والخلعـــاء وما يفعله سماسرة الأعراض والمحاسن الى غير ذلك من حياة قومية عريضة مائجة بضروب العادات والأخلاق حفيلة بالأنظمة الاجتماعية • وقد جعل ديدنه المقارنة بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة حتى يتبين القارىء الفرق الواضح بينهما ، وتعم الفائدة وتبدو وجوه النقص والشذوذ على علاتها •

وهذا الحديث حوار بين عيسى بن هشام والباشا تارة وبين أفراد القوم طورا وهو على سياق القصة المحضـــة تارة أخـــرى بحيث يتفكه القارىء باختلاف السياق ويستريح الى هذا الانتقال •

أما اللغة فقديمة المنهاج فخمة اللفظ أصـــيلة العربية لا تشـــوبها التراكيب الاعجمية ولا تعتورها رخاوة الألفاظ العـــامية ، ولولا نسقها على الطريقة القديمة أو بعبارة أوضح لو أنها صارت عصرية النهج كان الكتاب الى اليوم أحدث ما تنتجه القرائح لاتســـاع مداه ووفرة مادته وخصب موضوعاته لأنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة الا تكلم عنها •

فبينما هو يقابل بين أرباب الرياسات فى هـــذا العهد ومثلهم من العهد السابق تراه يملى القواعد الواجبة على الرئيس ويدل على مواضع الاحترام له وما ينفى الاحترام عنـــه • فاذا مرض واستطب تنـــاول موضوع الطب وواجبات الأطباء فعقد درســـا مستفيضا جليلا • فاذا اعتزل للاعتكاف على الأدب أطرى الأدب اطراء جميلا وأظهر محاسنه وأنه لا جمال للحياة الا به • واذا حضر العرس وســـمع الغناء عقـــد للغناء فصلا شائقا ممتعا • الى آخر ما هناك من هذه الفصول القيمـــة التى تملك على القارىء المستوعب لبه وفكره •

على أنه مهما تجرد الكاتب من نفسيته فى كتابه وجعله على ألســـنة غيره فهو واضـــع فيه من نفســـه شيئا كثيرا • وعلى هـــذا نستبين فى

(*) تمييز الكلمات من عندى •

« حديث عيسى بن هشام » أن المويلحى بك رحمه الله كان يعلى مقام المتنبى بنوع خاص لأنه يكثر الاستشهاد بأبيات عربية منها للمتنبى ولكن أغلبها للمعرى • وفى لجزء الأخير من الكتاب ترى نثره متأثرا كل التأثر فى بعض فقره برسالة الغفران للمعرى حتى انه لو سمح المقام بتقديم الشواهد لقابلنا بين الفقر وأظهرنا موضع المطابقة •

هذا من حيث ذوق مطالعاته • غير أن سجعه أسهل من سجع الحريرى فى بعض المواقف ولكنه ربما تعقد فى البعض الآخر وعصيه جملة فى مواقف شتى فاستعاض عنه بالترسل ولكن على مضض •

والمؤلف رحمه الله موفق فى كثير من ملاحظاته الاجتماعية وان غلب عليه الاجمال فى الانتقاد وتناول الموضوع من سطوره الكبيرة كما يقولون • فلا يدقق فى التفصيل ولا ينفذ الى الجهات الدقيقة • لأنه يريد الالمام بجملته ولأنه عالى النظر تتسع حوله دائرة الحياة •

وفى الكتاب فكاهة كثيرة ونكات شتى وأقاصيص رشفقة [1] الروح تدل على كثير من الدعابة البريئة فى نفس المؤلف • وفيه استشهادات قرآنية كثيرة جدا وأسانيد تاريخية وأدبية تبرهن على وفرة العلم وبعد المطالعة ونضوج الثقافة •

* * *

نريد لو نعرض لهذه الطريقة لنرى كيف اهتدى اليها المرحوم المويلحى بك وهى طريقة الحوار والقصة لانتقاد عادات العصر وأخلاقه على اقفار الأدب القديم منها • ولعل كتاب « الساق على

---

(١) هكذا فى الاصل ولعل الصواب « رشيقة » .

الساق » لأحمد فارس الشدياق [١] معاصر لحديث عيسى بن هشام أو يسبقه بقليل وانما الأول لغوى بحت وشخصى جدا وفيه النكتة اللاذعة واللفظة القارعة • ولكنه محشو بأوصاف بديئة تخجل القارىء الحى • أما حديث عيسى بن هشام فانه راقى الأدب جم النزاهة يرمى اليك بالنكتة المستملحة والطرفة البالغة فى ثوب من الأباء والغضب الخلقى العنيف • فليس اذن له علاقة ما مع الساق وان كان هنالك بعض وجه للتقريب بينهما • لكنما كان المرحوم عبد الله نديم [٢] ينشر فى جريدته

---

(١) أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧م) عالم باللغة والأدب . ولد فى قرية عشقوت (بلبنان) وأبواه مسيحيان مارونيان سمياه فارسا . ورحل الى مصر فتلقى الادب عن علمائها . ورحل الى مالطة . وتنقل فى أوربا ، ثم سافر الى تونس فاعتنق الدين الاسلامى وتسمى « أحمد فارس » سافر الى الاستانة وأصدر بها صحيفة « الجوائب » سنة ١٢٧٧ هـ توفى بالاستانة ، ونقل جثمانه الى لبنان .

من آثاره « كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب » اختارها ابنه سليم من مقالاته فى الجوائب ، و « سر الليال فى القلب والابدال » فى اللغة ، جزآن ، طبع الاول منها و « الواسطة فى أحوال مالطة » و « كشف المخبا عن فنون أوربا » و « الجاسوس على القاموس » و « اللفيف فى كل معنى طريف » و « الساق على الساق فى ما هو الفارياق » . وله عدة كتب لم تزل مخطوطة ، منها « ديوان شعر » و « المرآة فى عكس التوراة » و « تراجم الرجال » و « علم البديع » . انظر ، الزركلى ، الاعلام ، (الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، بيروت) ص ١٨٤ . « الباحث » .

(٢) عبد الله نديم (١٨٤٣ — ١٨٩٦) ، كاتب وشاعر ، وخطيب ، وصحفى ، وطنى مصرى ولد بالاسكندرية ، وحفظ القرآن ، وحضر دروس بعض المشايخ هناك . كان موظفا بالبرق ، وتاجرا ، ومدرسا ، واشتغل بتنظيم الجمعيات الخيرية التعليمية ، يرمى من ورائها للدعوة الوطنية ، قبل أن ينصرف للصحافة فيصدر « التنكيت والتبكيت » و « اللطائف » . اشترك فى الثورة العرابية بقلمه ولسانه وبعد فشلها عاش مدة متخفيا ، ثم عثر عليه ونفى وعفى عنه ، فعاد وأصدر مجلة « الاستاذ » فترة قصيرة ، ثم نفى ثانية ، فذهب الى الاستانة حيث مات ، يعد خطيبا لسنا حاد الذهن ، ورائدا من رواد الصحافة العربية الوطنية . أما شعره ورسائله فتغلب عليهما الصنعة . جمع بعض شعره ونشر فى « سلافة النديم » . « الباحث » .

« الاستاذ » قطعا انتقادية اجتماعية هى محاورات تدور بين رجل وامرأة أو رجل ورجل أو امرأة وامرأة يتناول فيها بعض العادات بالتقريع والتنديد ولكنها كانت محاورات لارباط بينها ولا تتسع فى تسلسلها لمثل ما اتسع له حديث عيسى بن هشام .

ولقد ظهر فى فرنسا عام ١٨٤٣ كتاب لمؤلفه « ليون ريبو » عنوانه « جيروم باتورو » يبحث عن مركز اجتماعى اذا نحن نظرنا اليه وجدنا مؤلفه يرسل بطل قصته باحثا فى الهيئة الاجتماعية معترضا أنظمتها منددا بكثير منها متسعا فى بحثه متعددا فى موضوعاته ، ولقد شاع هذا الكتاب شيوعا كبيرا فى النصف الثانى [1] القرن الماضى ولا شك أنه وصل الى عبد الله نديم والى المويلحى بك وكان اعجاب الفرنسيس به كثيرا حتى ان مؤلفه عاد سيرته الأولى مرة ثانية عام ١٨٤٨ ونشر كتابا آخر بعنوان « جيروم باتورو » يبحث عن « أفضل جمهورية » ومعلوم أن عام ١٨٤٨ شهد انقلاب الملكية فى فرنسا وقيام الجمهورية الثانية . وشاع أيضا هذا الكتاب شيوعا كبيرا .

نقول لعل هذين الكتابين يصلحان [2] مصدرا لطريقة النقد الاجتماعى فى اسلوب المحاورة أما فصول حديث عيسى بن هشام فشبيهة كل الشبه بالمقامات حتى ان عيسى بن هشام هو راوية مقامات أبى الفضل الهذانى كما أن الحارث بن همام راوية مقامات الحريرى وسهيل بن عباد راوية مقامات اليازجى والمقامات كما هو مشهور لا غاية لها غير اللغة والحيلة ، سوى اليازجية منها فانها تفيد كثيرا من تاريخ الجاهلية والأمثلة العربية .

* * *

---

(١) هكذا فى الاصل والصواب « من » حتى يستقيم المعنى .
(٢) فى الاصل يصحان .

ومجمل القـــول ان حديث عيسى بن هشـــام كتاب سوف يبقى ما بقى الأدب العربى ، ويذكر صاحبه بالفضل لأنه حور [1] أخـــلاق عصره • فهو معين للمؤرخ ومفيد للأديب وملجأ للباحث وسيذكر اليـــوم خطباء الحفلة التى تقام فى القاهرة تكريما لذكرى المرحوم المويلحى بك صفات عديدة للراحـــل الكبير ويشـــيدون بمنـــاقبه الوافرة من جميع الوجوه • ونحن أحببنا أن نضم صوتنا اليهم وندل على ماله من يد على الأدب والأدباء بدراســـة كتابه « حديث عيسى بن هشام » وخير طريقة نستدريها الرحمة للأديب الكريم تحليل أدبه وانزاله منزلته من التاريخ والأدب •

« صاد شين »

---

(١) هكذا فى الأصل والصواب « صور » .

٦ ــ حديث عيسى بن هشام
أو فترة من الزمــن
محمــد لطفى جمعه (*)

أصل تسمية الكتاب تقليد لمقامات أبى الفضــل أحمد بن الحسين ابن يحى بن سعيد الهمذانى المعــروف ببديع الزمان وانى أتقــدم الى صديقى الفاضل أحمد شوقى بك بعتاب صغير على انتقاصه من قــدر بديع الزمان فى معرض رثائه المرحــوم المويلحى اذ يقــول فى وصف أســلوب المويلحى [1] .

رب ســجع كمرقص الشــعر لمــا
يختــلف لحنــــه ولا ايقــــاعه
أو كســجع الحمــام لــو فصــلته
وتأنت بــــه ، ودق أخــــتراعه
هو فيــه بديــــع كل زمــــان
ما بديــع الزمــان ؟ ما أســجاعه !

ولو لم يكن فى الأمر الا أن المرحــوم المويلحى استعار اســم بطل المقامات ليكون بطلا لكتابه لكفى بذلك عرفانا بالجميل لبديع الزمــان فضــلا عن أننا لم نر كاتبا أو شــاعرا انتقص من قدر بديــع الزمــان وهو الذى وصفه المرحوم الاســتاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مقدمة

(*) البلاغ اليومى ، العدد ٢٢٠٨ فى ٢٨ يونيه ١٩٣٠ ، ص ٣ .
(١) مطلع القصيدة :
كاتب محسن البيــــان صناعه استخف القول حينــــا يراعه
انظر ديوان أحمد شوقى : « الشوقيات » (القاهرة ، المطبعة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ ، الجزء الثالث) ص ١٠١ « الباحث » .

شرح مقاماته (طبع بيروت سنة ١٨٨٩) « له المعانى العالية فى العبارات الحالية ، والأساليب الساحرة فى الألفاظ الباهرة • وما أجدره بقول نفسه فى وصف زهير « يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه » [٢] •

على أننا لا نهتم لاسلوب بديع الزمان بقدر اهتمامنا بابتكاره **فهو ان لم يكن أول من وضع المقامة الأدبية وهى نواة القصة القصيرة (لأنها تنطوى على عقدة وشخصيات) فهو أول من أتقنها وأبدعها ونسخ الأدباء بعده على منواله** • ويحق لنا الافتخار بعيسى بن هشام وأبى زيد السروجى أكثر مما نفخر بكل الشعر الغنائى العربى الذى يبدأ بالغزل وينتهى بالمديح أو التهنئة •• حتى أن استاذنا شوقى بك نفسه لما حاول النثر فى عذراء الهند وورقة الآس وفى القطع الجميلة الحديثة التى يصف فيها قنال السويس والجندى المجهول لم يخرج عن طريقة السجع المرضع قيد أصبع • غير أننا نظن أن أستاذنا المحبب شوقى بك لم يكن يريد الانتقاص من بديع الزمان بقوله •

م بديع الزمان ! ما أسجاعه

وانما هى القافية (مصراعه اختراعه ، ايقاعه) هى التى حكمت عليه حكما قاسيا •

نقول ان أصل تسمية كتاب المويلحى انه اتخذ اسم بطل بديع الزمان اشارة الى موضوع الكتاب صور من حقيقة وخيال هى احسان فكره وابتداعه •

بدأ المويلحى كتابه الذى كان ينشره تباعا فى جريدة مصباح

---

(٢) مقامات الهمذانى ، قدم لها وشرح غوامضها العلامة الشيخ محمد عبده (بيروت ؛ المطبعة الكاثوليكية ــ كانون الثانى ١٩٥٨) ص ٣ ــ ٥ . « الباحث »

الشرق [١] بالاشارة الى فضـــلاء عصره الذين يعترف بفضـــلهم وتأدب هو بأدبهم وأخذ عنهم وهم المرحـــوم الأديب الـــوالد (ابراهيم بك المويلحى) والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى .

ثم تفضل على أدباء عصره وأبناء جيله بصورة الخطـــاب الـــذى أرســـله اليه جمال الدين الأفغانى ونصه .

حبيبى الفاضل

تقلبك فى شئون الكمال يشرح الصـــدور الحرجة من حسراتها ، وخوضك فى فنون الآداب يريح قلوبا علّقت بك آمالهـــا . وليس بعـــد

---

(١) نشر « حديث عيسى بن هشام » منجما فى جريدة « مصباح الشرق » ابتداء من العدد ٣١ الموافق الخميس ٣ رجب ١٣١٦ ، ١٧ نوفمبر ١٨٩٨ . واستمر النشر الى العدد ١٠٧ الموافق ١٩٠٠/٦/٨ حيث نشر (ابراهيم المويلحى) تحت عنوان « مرآة العالم » أحاديث موسى بن عصام ابتداء من ١٩٠٠/٦/٢٢ ثم تعاقب نشر العملين . وقد جاء فى « مصـــباح الشرق » عن (الرحلة الثانية) فى العدد ١١٦ الموافق ١٩٠٠/٨/١٧ المقدمة التالية — وهى غير منشورة فى الكتاب « الطاعة التى اعتمدت عليها » ، طبعة الدار القومية ١٩٦٤ . « هذه هى الرسالة الاولى من حديث عيسى بن هشام عن زيارة معرض باريس بعث بها الينا السيد محمد المويلحى بعد رسالته التى نشرناها فى أحد أعدادنا الماضية عن زيارة سمو الجناب العالى الخديو لجلالة ملك الانجليز فى بلادها » . وقد استمر نشر « حديث عيسى بن هشام » الى ١٩٠٠/٨/٢٤ ، حيث استأنف « ابراهيم المويلحى » نشر « حديث موسى بن عصام » ١٩٠٠/٩/٧ ثم عاد لنشر « حديث عيسى بن هشام » (المعرض) فى ١٩٠٠/٩/٢١ ،

١٩٠٠/ ٨/٣١
١٩٠٠/١٠/ ٥
١٩٠٠/١٠/٢٦
١٩٠٠/١١/٢٣
١٩٠٠/١٢/١٤
١٩٠٢/ ٢/٢١
١٩٠٢/ ٣/١٤

الارهاص الا الاعجاز ، ولك يومئذ التحدى • ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى ، وهذا توفيق من الله تعالى • فاشدد أزرها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها ، حتى تكون كلمة الحق هى العليا • ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ، ويصلحون أمرا • وكن عونا للحق ولو على نفسك ، ولا تقف فى سيرك الى الفضائل عند عجبك • لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام •

جمال الدين الحسينى الأفغانى

١٩ ربيع الثانى

وقد ذهبت الأقوال فى هذا الكتاب مذاهب شتى فقال فريق من الناس ان الأفغانى رحمه الله كتبه الى المرحوم ابراهيم بك المويلحى ، لما كان بينهما من أواصر المودة وروابط الألفة ، والمحبة فى مصر والقسطنطينية وأن المرحوم الوالد تنزل عنه لنجله محمد بك لعلمه بأنه ثروة لا يستهان بها ويستشهدون على صحة قولهم بأن الخطاب مستهل بقوله « حبيبى الفاضل » وليس فيه اسم المرسل اليه محمد بك ، وان تاريخ السنة التى أرسل فيها الخطاب غفل الا من تاريخ اليوم والشهر ١٩ ربيع الثانى ولا يعقل أن يكتب الأفغانى تاريخ اليوم والشهر ولا يكتب تاريخ السنة •

ونحن لا نميل مع أحد الرأيين ولكننا نحقق المسألة فان المرحوم محمد بك يقول فى مقدمة عيسى بن هشام ان الخطاب أرسل اليه منذ خمس عشرة سنة والكتاب مطبوع سنة ١٩٠٧ فمعنى ذلك أن خطاب الأفغانى وصل الى يد محمد بك المويلحى سنة ١٨٩٢ ، والمرحوم جمال الدين توفى فى اصطامبول سنة ١٨٩٧ أى قبل وفاة الأفغانى بخمس سنين •

وتنتقل الى عمر المرحوم محمد بك فقد اختلف الرواة فى تقدير عمره فقال شوقى بك [١] .

فى الثمانين ــ يا (محمد) ــ علم لعليم ، وان تناهى اطلاعه

وقال حافظ [٢] .

جزت سبعين حجة لاتبالى بشهاد تعاقبت أم بصاب

فلو افترضنا أن عمره عند وفاته كان ٧٥ عاما ، فكان عمره كان فى سنة ١٨٩٢ وهى سنة تاريخ ارسال خطاب الأفغانى اليه ثمانيا وثلاثين سنة أى أنه كان فى حدود الأربعين ويصح أن يرسل اليه جمال الدين مثل هذا الخطاب الذى ينطوى على النصح ولا يعقل أن جمال الدين يبعث بمثله الى المرحوم ابراهيم بك المتوفى فى سنة ١٩٠٦ فانه كان من أنداده وكان فى سنة ١٨٩٢ على الأقل فى الستين من عمره باحتساب أن بينه وبين ولده محمد اثنتين وعشرين سنة وقد توفى المرحوم ابراهيم بك فى الخامسة والسبعين من عمره .

ثم ان اسلوب الخطاب نفسه يدل على نصيحة كبير لصغير أو استاذ لمريد فهو يقول له « يريح قلوبا علقت بك آمالها » .

ويشير المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الى الحركة الوطنية فى دورها الثانى قد ظهرت حوالى سنة ١٨٩٢ فلذا هو يقول تمثلت اللطيفة

---

(١) الديوان ، الجزء الثالث ، ص ١٠٢ .

(٢) من قصيدة انشدها فى حفل التأبين الذى اقيم على مسرح حديقة الازبكية فى ١٣ يونيه سنة ١٩٣٠ ومطلعها :

دمعة من دموع عهد الشباب كنت خبأتها ليوم المصاب

والشهاد : عسل النحل . والصاب : عصارة شجر شديدة المرارة . يريد حلو الزمان ومره .

انظر : ديوان حافظ ابراهيم « الباحث » .

الموسوية فى مصر كرة أخرى وهـذا توفيق من الله (تعالى) فاشـدد أزرها ألخ •

اذن نخرج من هذا بأن خطاب الأفغانى مرسـل الى المرحـوم محمد بك حقـا •

غاية المويلحى من كتاب عيسى بن هشام

قال المرحـوم محمد بك ان الحديث (أو مجموعة المقامة المصرية) ان كان موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال لا أنه خيـال مصبوغ فى صبغة حقيقية قصد به أن يشرح الأخلاق والأطوار ويصف ما عليـه الناس من النقـائص التى ينبغى اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها •

وفى مستهل الكلام يظهر بطل القصة سائرا فى المقابر فتخطر بباله فكرة أبى العلاء والخيام وكلاهما يتخيل المقابر منطوية على أجسـام كانت موضع الاجلال والاكرام والمحبة فيقول •

« ان فى غمار لك الرمم لمباسم طالما حول العاشـق قبلته لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها ••• (و) ان تلك الخدود التى كان يغادر منها الورد فيبكى بدموع الندى ••• قد طوى الدهر حسنها طى الكتاب ، وصارت بحكم القضاء أديماً لوجه الفضاء •

ثم ذكر بقية أعضاء البدن وذكر الملوك والعظماء المدفونين فى تلك الصحراء حتى أدركته الحسرة والموعظة المرة •

وان « المؤلف » فى هذه المواعظ والعبر اذا به يرى قبرا من بـين تلك القبور قد انشق وخرج منه رجل طويل القامة فأخذ عيسى بن هشام يسرع فى مشيته فاذا الدفين المبعوث يناديه ويسأله عن اسـمه وعمله وغايته من زيارته • ثم يظهر أن الدفين هو أحمد باشـا المنيكلى (؟!) ناظر الجهادية المصرية •

وقال المنيكلى انه يتنكر فى مصاحبته لافندينا المرحوم ابراهيم باشا فى الليالى التى كان يصرفها فى البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية أن البلد لا يدخل بابه الا اذا عرف الداخل وأنه يظن سر الليل التى كانت تصدر من القلعة فى كل ليلة الى الصابطة والى جميع القره قولات والأبواب فلا يصرحون لأحد يمشى بالليل الا اذا كان حافظا لهذه الكلمة قليلة تكون كلمة « عدس » وليلة تكون « حمصة » وهلم جرا .

وقال يصف جلسة فى محكمة الجنح فى أواخر القرن التاسع عشر ص ٣٤ وما بعدها . ؟

قال عيسى بن هشام : وبينا نحن فى هذا الحديث اذ ارتج المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى ، وهو فى عنفوان شبابه ، وصبا أيامه يتألق وجهه حسنا ويشاكل فى القد غصنا ، وكأنه طائر فى مشيته ، من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ، ذهبت أسأل عن نوبة القضية ، ثم عدت الى صاحبى ، ومكثنا فى الانتظار زمنا طويلا الى أن جاء وقتنا ، ونودى الباشا ، فدخل مع المحامى فى الجلسة ، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » فى أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة ٣٤٦ مخالفات لتعدية على المكارى بالايذاء الخفيف .

القاضى « للمتهم » هل فعلت هذه التهمة ؟

قال عيسى بن هشام : واستحضرونى شاهدا ، فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه التهمة من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة ، لأن حالة المتهم تستدعى ذلك ، فانه يتخيل أن رتبته تجعله خارجا عن سلطة القانون ، وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنا ، فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ، ولا شك أن

تشديد العقوبة عليه واجب ، لاعتبار أمثاله به • وللمساواة فى العدالة ، وأفوض الأمر الى المحكمة • او كلام النائب •

القاضى (للمحامى) ــ المحاماة ، مع الاختصار •

المحامى ــ بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه ــ اننا نتعجب من أن النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين ، وتقول : ان أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضى ، والأصل فى موضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية ، كان يقصد منه •••

القاضى (مشمئزا) ــ اختصر يا حضرة المحامى ، وأدخل فى الموضوع •

المحامى ••• ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى ••

القاضى (متفجرا) اختصر يا بك •

المحامى ــ الموضوع يقتضى ذلك •

القاضى (متأففا) ــ لا لزوم له •

المحامى (متحيرا) ــ قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئا من أقوالها) ونحن نقول : اننا لو سلمنا جدلا •

القاضى (مغضبا) ــ يكفى يابك ، الموضوع •

المحامى (متلعثمامضطربا) ــ ان هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم ، وأمير خطير من أهل العصر القديم ، وله حديث منشور فى الجرائد ــ وهذه أعداد جريدة « مصباح الشرق » تطلعون عليها ــ وقد اعترضه فى طريقة أحد المكارين ، فدفعه عن نفسه ، والناس يعلمون الحاح الحمارة وسوء أدبهم ، ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية ••

القاضى (نافذا صبرة) ــ قلنا اختصر يا بك •

المحامى (وهو يتصبب عرقا) ــ ولما توجه المتهم الى القسم

أغمى عليه ، فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية ، وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات الى دعوى البوليس ، ولا عقاب على المتهم المبتة ، لأنه كان فى عصر غير عصرنا ، وفى نظام خلاف نظامنا . ولم تبلغه دعوة القانون فهو يجهل أحكامه ، وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالأحوال . وان ...

القاضى (منفعلا ضاربا بده على المكتبه) ــ المحكمة تنورت يا بك ، ولا لزوم للكلام مطلقا ، فهلم طلباتك .

المحامى (ساخطا فى نفسه) ــ طلباتنا هى من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم ومن باب الأحتياط استعمال منتهى الرأفة وتطبيق المادة ٣٥٢ عقوبات .

قال عيسى بن هشام ــ وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم ، فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفا بمقتضى المادتين المذكورتين آنفا وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضا من المخالفات . فضاقت الأرض بى ، وأظلمت الدنيا فى عينى . وكدت أشترك مع صاحبى فى الذهول .

يرى القارىء أن الصورة التى رسمها المرحوم محمد المويلحى من محاكم الجنح فى أواخر القرن التاسع عشر ، لا تختلف كثيرا عن الصورة الحالية ، فلا يزال القضاه يتعجلون الدفاع ويستحثون المحامين على الاختصار والاسراع ، ولا يزال المحامى يحاول جهده فى تفهيم القضية للرجل الذى يمثل العدل ، غير أن النيابة لا تترافع الآن فى مواد الجنح والمخالفات الا فى النادر ، وقد أخطأ المرحوم فى عبارة بسيطة وهى ختام مرافعة النيابة بتفويض الرأى للمحكمة ، لأن هذا الطلب كما هو معلوم لا ينطبق على طلب العقوبة ، ولكن هذا خطأ مادى بسيط لا يدركه الخارجون عن الصناعة ، على أن التلخيص للحالة صحيح جدا وموافق فى مجموعه للحقيقة .

محمد لطفى جمعه

٧ ــ حــديث عيسى بن هشــام

* أحمــد أبو بكر ابراهيم

كتب الدكتور « زكى مبــارك » بحثا قيما فى حديث عيسى بن هشام شرح فيه كثيرا من الحقائق التى تهم كل مطلع على هذا الكتاب ، وكشف عن كثير من النواحى التى تهدى الطلاب الى الصواب ، وتأخذهم بأيديهم الى طرق البحث المجدى والاطلاع المفيد ، ولكن الدكتور لم يرد ببحثه الاستعاب والاستقصاء وذلك ليترك للطالب مجالا للتفكير والتنقيب .

هذا ما رآه الدكتور وهو رأى فيه صواب وفيــه حكمة ، ولــكن الطالب فى كثير من الأحيان يحتاج الى شىء من البسط والايضاح ، ولهذا رأيت أن أكتب هذه الكلمة الموجزة تتميما للفائدة فى أسلوب الــكتاب ومنزلته القصصية .

١ ــ المنزلة القصصية للكتاب

حديث عيسى بن هشام تصوير رائع للمجتمع المصرى فى فترة من الزمن ، وعرض شائق للحياة المصرية وما فيها من أخــلاق وعــادات وأنظمة فى أسلوب قصصى جميل .

ولا يشك أحد فى أن هذا الكتاب يعتبر بداية طيبة للقصة المصرية وفتحا جديدا للون جديد من الأدب فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين * ذلك لأن القصة المصرية منذ بداية العصر الحديث كانت مقصورة على المقامة والقصص العامية ، وما خرج منها عن هذه الدائرة كان منقولا عن اللغات الأجنبية لا يمثل الحياة المصرية فى قليل ولا كثير ــ ولقد كان اخواننا السوريون أسبق الى النقــل والتأليف فى هذا الفن ،

(*) الرسالة ، ٢٣ نوفمبر ١٩٤٢ ، ص ١٠٨ . وتمييز الكلمات من عنــــدى .

فاهتموا به منذ منتصف القرن التاسع عشر ونقلوا كثيرا من القصص التى لا تمثل الحياة الشرقية ، ثم ألفوا بعضا منها يمثل الحياة العربية « كالمروءة والوفاء » للشيخ خليل اليازجى •

ونحن حين نقول ان حديث عيسى بن هشام كان بداية طيبة للقصة لا ندعى أنه استوفى شروطها وأنه سلم من الأخطاء الفنية التى تخرج الكتاب عن الروح القصصى ، فالقارىء يلحظ التقصير فى كثير من المواقف التى عالجها الكتاب ، **ويحس أن المويلحى كان ساردا لمظاهر الحياة المصرية لا كاتبا قصصيا** • ويكفى للبرهان على هذا الرأى أن يرجع القارىء الى المجالس التى شهدها عيسى بن هشام مع الباشا ، فهما يحضران مجلس التاجر وغيره بعد الاستئذان ويسمعان كل ما يقال ، ثم يخرجان دون أن يشعر بهما أحد ودون أن يشتركا فى الحديث مع الجالسين ، وهذا مناف للعادات المألوفة ، فالزائر الغريب دائما يكون موضع السؤال والاهتمام والعناية ، وكثيرا ما يكون قدومه سببا فى تغيير سياق الحديث •

ثم ان الكاتب بالغ الى حد كبير فى استقصاء وتتبع نواحى المجتمع وكان يتلمس المناسبات فى كثير من الأبواب ليشرح موضوعا من الموضوعات ، وكان الاتصال بين الأفكار أحيانا لا يجرى على المألوف المستساغ • والمعروف أن القصص لا تحتمل هذا التكلف ، ويكفى أن يلم الكاتب فى قصته ببعض هذه الموضوعات •

ولكنا مع هذا لا نغض من قدر الكتاب فهو توجيه جديد الى لون من الأدب ولا يسلم مثل هذا الانتقال من المآخذ والنقص •

٢ ــ أسلوب الكتاب :

لقد كتب الدكتور فى هذا الموضوع كلمة قيمة وضح فيها أن أسلوب الكتاب نوعان : أسلوب فنى أريد به الامتاع ، وأسلوب علمى توخيت فيه السهولة والبساطة •

وهنا يتساءل بعض القارئين : لم اختلف الأسلوب فى كتاب واحد لمؤلف واحد ؟

والمعهود أن لكل كاتب أسلوبه الخاص الذى يمتاز به ويحمل طابعه فى كل كتابة له ، ولم نعرف لكبار الكتاب الأقدمين والحديثين نوعين من الأساليب ، فأسلوب الجاحظ له طابعه ولأسلوب الزيات مميزاته الخاصة .

وأقول فى الإجابة عن هذا : **ان السر فى اختلاف الأسلوب فى حديث عيسى بن هشام راجع الى أن الكتاب وضع فى عهد انتقال للأدب ، فقد اضطرب الأدب والأدباء فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكان الأدباء بين عاملين : عامل الحنين الى القديم المملوء بالجمال الفنى والمحسنات البديعية ، وعامل النزوع الى الطريقة الجديدة التى تعنى بالمعنى والسهولة والوضوح قبل كل شىء** . وقد جاء حديث **عيسى بن هشام** معبرا عن هاتين النزعتين أصدق تعبير ، فهو حين يجد مجالا **للجمال** والامتاع يستعير قلم من يعنون **بالديباجة والصياغة اللفظية ، وحينما يقف أمام موضوع علمى يتناوله بقلم المجددين الذين يعنون بالمعانى والبساطة فى الأسلوب** . وقد كان هذا التردد بين الأسلوبين ظاهرا فى أسلوب كثير من الأدباء الذين ظهروا فى هذه الفترة من الزمن ومنهم الشيخ محمد عبده وعبد الله فكرى . ومازال الأدباء على هذا النحو من التردد حتى ظهر الأدب فى ثوبه الجديد واستقر فى اتجاهه الذى يعرف به .

ويلحظ القارىء فى حديث عيسى بن هشام أن المويلحى لا يلجأ الى تنميق العبارة والعناية بالأسلوب الا اذا كان الحديث على لسان عيسى بن هشام أو الباشا ، أما غيرهما من أشخاص الكتاب فيجرى الحديث على ألسنتهم سهلا لا أثر فيه للتنميق والتجميل . ولم يشذ عن هذه الطريقة الا فى الحوار ، فهو يتوخى فيه السهولة ولو كان بين عيسى والباشا .

ونستطيع أن نلخص مميزات الأسلوب الفنى فى حديث عيسى ابن هشام فيما يلى :

(أ) السجع ولم يظهر فيه التكلف الا قليلا لاقتدار المويلحى على تخير الألفاظ الملائمة .

(ب) الاستشهاد بالشعر والتضمين فى كثير من المناسبات ، وقد أكثر من ذلك المويلحى وكان اختياره يدل على سعة اطلاعه وصفاء ذوقه .

(حـ) الاقتباس من القرآن الكريم .

(د) ومن المحسنات الكثيرة التى حسن بها كلامه الجناس وفى بعض ما أتى به مغالاة واكثار ومن ذلك قوله : « وغيرها ترضع طفلين فى حذاء وزوجها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذة بضفيرة ضرتها ورضيعها يتلهف على ضرتها » .

(هـ) وهو يأتى بالتورية فى موضعها ، ويعزب فى بعض التعبيرات فتأتى عالية الأسلوب بين التعبيرات الأخرى السهلة .

(و) يستعير خيال الشاعر فى كثير من الأبواب وبخاصة فى الوصف .

* * *

وبعد فان للكتاب نواحى كثيرة لا يتسع المقام لشرحها ، ومن بينها النقد الأدبى فى الكتاب والاتجاهات الأدبية التى يرمى اليها المؤلف ، والاصلاح الاجتماعى الذى يبنيه ... وهكذا . وعلى الطالب أن يستوعب كل هذا ويلم بأطرافه والله الموفق الهادى .

« الفيوم »

أحمد أبو بكر ابراهيم

٨ ــ حــديث عيسى بن هشــام

* محمد مهــدى علام

أريد أن أعرض عليكم صفحة من كتــاب كانت لــه منــذ عهــد قريب ســوق رائجة بين القراء فى مصر وغيرها من البلاد العربية غير أنى أخشى أن تعاقب الأحداث وتقلبات الزمن قد زرته بعض الشىء فى احدى زوايا النسيان .

ذلك هو « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى الأصغر محمد نشره فى فجر القرن الحاضر فصــولا متتابعة فى مصباح الشرق جريدة أبيه المويلحى الأكبر ابراهيم ثم نشره كتابا بعد ذلك .

وقد توالى الكاتب وصف حال الأمة المصرية فى ذلك العهد من حيث نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وصفا أضاءته لقرائه مقارنته بحالة مصر قبل قرن من ذلك الزمن .

وقد سلك لتلك الغاية سبيلا طريفا اذ جعــل الحديث على لسان راوية (١) عيسى بن هشام الذى حدث انه رأى فى المنام كأنه كان يمشى بين القبور وبينما هو فى حالة تدبر واعتبار اذا برجة عنيفة من خلفــه فالتفت فرأى قبرا ينشــق ثم يخرج منه رجــل يتضح فيما بعد أنه أحــد باشاوات القرن الســالف ويرافق كل منهمــا الآخر فى رحــلة طويلة تتعدد حوادثها وتتناول نواحى مختلفة من الحياة المصرية .

فالباشا المبعوث من قبره يدهش دهشــة الحيران لما يرى أمامه من التغييرات والانقلابات وعيسى بن هشــام يشرح له كل ما يمران بــه

(*) السياسة الإسبوعية ، العدد ٣٥٥ ، ٢٢ يناير ١٩٤٤ ، ص ٦ .
(١) فى الاصل رواية .

وطبيعى أن نترقب أن مثل ذلك الزائر لابد أن يصطدم فى حياته الجديدة بعقبات بل هو يكاد لا يخرج من واحدة الا لأخرى وفى سرد تلك الوقائع * ما كانت عليه مصر منذ نصف قرن مقارنا بما كانت عليه فى القرن السابق لذلك العهد ومن الانصاف للكاتب أن نقول انه كان فى معظم وصفه صادقا فلم يتشيع لقديم لمجرد قدمه ولم يتشيع لجديد لمجرد جدته •

فتارة يبين للزائر أن بعد ما كان عليه عصره السابق خطأ قد عدل عنه الناس وأصلحوه وأخرى يعترف معه بأن التقدم الحديث لم يسر فى الاتجاه الحق •

ولكن القارىء لا يملك الا أن يقرأ ويقرأ حتى يفرغ من الكتاب وانى لأذكر أول عهدى بذلك الكتاب وأنا غلام كيف بدأته فاستمررت فى قراءته حتى قضى على جلول الليل بمفارقته آسفا على فراقه ثم بكرت له صباح اليوم التالى لأتمه •

ولعل خير ما أختم به هذه الصفحة الأدبية ما نقله الينا المويلحى حينما طلب الباشا من صديقه أن يزور به المجالس المختلفة لطبقات المصريين ليستمع الى أحاديثهم ويختبر آراءهم •

فزار به مرة مجلس علماء وأخرى مجلس تجار وهكذا حتى انتهى بها المطاف الى مجلس جمع بعض رجال الحكومة وكانوا يتحدثون فى نصيبهم من الحياة ويقارنه بنصيب غيرهم من التجار والزراع والصناع ومع أن معظمهم فضل وظائف الحكومة على الأعمال الحرة يسمعنا المويلحى صوت أحدهم بما فيه العبرة لشبابنا اليوم فى طرق أبواب الأعمال الحرة والمساهمة فى تجارة البلاد

(*) فى الاصل غير واضحة .

بنصيب وافر واعتراف الزراعة الحديثة ويخوض غمار الصناعة ليكونوا عماد الثروة الوطنية وأساس الاقتصاد القومى ٠

على رسلك لا تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم والاستعظام لأهل الحكومة على أن حرفتهم خسيسة فى ذاتها بل ذلك حادث من جهلهم والا فلو تخلى أحدهم عن طبقته ودخل فى طبقتنا يوما لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل والحرية فى الرأى ٠

وبعد فان الباشا اذ يخرج الى دنياه الجديدة ويساير عيسى بن هشام فى طرقها وطرائقها يذكرنى بما كتبه **وليم موريس فى كتابه أخبار لا مصدر لها عندما يقص علينا قصته فيها شبه بهذه ففيها رجل بعث الى انجلترا بعد نحو مائتى سنة من عصره ويشاهد فيها من التغيرات ما يدهشه ويأخذ بلبه غير أن الفرق بين الكتابين أن وليم مورس نقل صاحبه الى عصر مستقبل لم يأت بعد وصور الحياة فيه على أنها فردوس أرضى ٠**

أما المويلحى فقد نقل صاحبه الباشا الى عصر حاضر عصر المويلحى نفسه وأخذ يعرض أمامه صور الحياة كما هى لا كما يتمناه مؤرخا وناقدا وأحيانا مصلحا ٠

على أن الأقرب أن نشبه كتاب المويلحى بالمقامات فى الأدب العربى بل لست أشك أن المقامات مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان هى مصدر وحيه ٠

قصة أول رواية مصرية :

٩ ــ الويلحى ومغـامرات عيسى بن هشام

* رشـاد رشـدى

كان القمر يسطع فيملأ السماء والأرض ، وهو يسـير بين القبور فى جهة الامام يتفكر فى مصير الانسـان وغروره ، عندما سمع رجة عنيفة فالتفت ليرى قبرا ينشـق منه رجل طويل القامة جليل المنظـر ، وقبل أن يفيق عيسى بن هشـام من دهشته ، أبصر الدفين يقترب منه ، وسمعه يناديه ، فوقف مذعورا .

الدفين ــ ما اسمك أيها الرجل ، وما عملك ، وما الذى جاء بك ؟

عيسى بن هشام : اسمى عيسى بن هشام ، وعملى صناعة الأقلام ، وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر ، فهى عندى أوعظ من خطب المنابر .

الدفين : وأين أدواتك يا معلم عيسى ودفترك ؟

عيسى بن هشام : أنا لست من كتاب الحسـاب والديوان ، ولكنى من كتاب الانشـاء والبيان .

الدفين : لا بأس بك ، فأذهب أيهـا الكاتب المنشىء ، فاطـلب لى ثيابى ، وليأتونى بفرسى (دحمان) .

عيسى بن هشام : وأين يا سيدى بيتكم ، فانى لا أعرفه ؟

الدفين : قل لى بالله من أى الأقطار أنت ؟ فانه يظهر لى أنك لست من أهـل مصر . اذ ليس فى القطـر كله من يجهـل بيت أحمد باشـا المنيكى ناظر الجهادية المصرية .

(*) آخر ساعة ، العدد ١٠١٤ ، ٣١ مارس ١٩٥٤ ، ص ٢٩ .

عيسى بن هشام أعلم أيها الباشا أننى رجل من صميم مصر ، ولم أجهل بيتك الا لأن البيوت فى مصر لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها ، وأزقتها وأرقامها ، فاذا تفضلت وأوضحت لى شارع بيتكم ، وزقاقه ورقمه ، انطلقت اليـــه وأتيتك بما تطلبه .

الدفين : ما أراك أيها الكاتب الا أن يعقلك دخلا ، فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها ... الأولى أن تناولنى رداءك استتربه ، وتصاحبنى حتى أصـــل الى بيتى ... ويتنـــازل عيسى بن هشـــام عن ردائه للدفـــين ، ويصطحبه فى رحلته فى عالم الأحياء ، وتبدأ القصة .

والرحلة رحلة زمنية لا لقارىء اليوم ، رغم أن القصـــة نشرت فى عام ١٨٩٨ ، بل للدفين الذى بعث الى الحياة فى أواخر القرن المـــاضى بعد أن انقضى على موته نحو أربعين سنة ، فاذا به لا يكاد يتعـــرف على شىء مما يراه حوله ، لأن الحيـــاة المصرية كانت قد وقعت تحت تأثـــير الغرب . وتغيرت فى الفترة التى انقضت بين موته وبعثه تغيرا كبيرا ، قلب ما فيها من أوضاع ... وقدانقضى على نشر قصة « عيسى بن هشام» للآن ستة وخمســـون عاما ، وهى فترة طويلة بلا شـــك ، ولكن جوهـــر الحياة المصرية لم يتغير خلال تغيرا ملموســـا ، وهى لذلك قصة حديثة ، رغم قدمها ، لأن كل ما بها ينطبق فى أساسه على حياتنا اليوم .

وقصة « عيسى بن هشام » هى ، أول قصة مصرية تعالج حيـــاة الشعب المصرى بالأسلوب الروائى الأوربى ، وبصراحة وواقعية تشـــبه واقعية كبار كتاب الغرب فى القرن المـــاضى ، مثال شـــارلز ديكنز (١) ،

---

(١) ديكنز ، تشـــــــارلز Dickens Charles (١٨١٢ — ١٨٧٠) : روائى انجليزى تميز أسلوبه بالدعابة البارعة والسخرية اللاذعة .
« الباحث »

وبلزاك ، (١) وفلوبير ، (٢) ، ورغم أن مؤلفها « محمد المويلحى » كان — كما يبدو — أول كتابنا تأثرا بالأدب الغربى ، الا أنه حرص على أن يأخذ من كتاب الغرب طريقهم فقط ، اما الروح ، فقد ظلت عربية صميمة ، بل وعريقة فى عربيتها أيضا .. وذلك لأن **المويلحى كان يؤمن بأنه ليس كل ما يأتى من الغرب يصلح الشرق ، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى تدور عليها قصته اذ يرى أن المدنية الغربية قد أدخلت على الشرق دفعة واحدة ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح الشرقيون يقادون أهل الغرب فى كل طرق معيشتهم دون تمييز أو تبصر أو أدراك للفوارق الشديدة بين العادات والأذواق والمشارب والأقطار نفسها ، فنبذ الشرقيون تقاليد أجدادهم واعتنقوا ما استوردوه من الغرب فقط ، وبذلك قطعوا بأيديهم جذور شجرتهم ، وهدموا صرح مدينتهم ، وأصبحوا يعيشون فى ضلال ، ويتقبلون حكم الأوروبى لبلادهم كما لو كان ذلك شيئا لا مفر منه ، قد قدر أنهم فى الغيب ، يعيشون فى الشرق كما لو كانوا قد ولدوا فى الغرب ، رغم أن المسافة بين الشرق والغرب ظلت كما لو تقصر ولم تتغير ..**

وهكذا ينتقد الدفين الحياة المصرية كما رآها بعد أربعين سنة من وفاته ، تأثرت فيها بالحضارة الأوروبية فأصبح لا يعرفها ، ولكنه ليس وحده فى نظرته هذه ، ففى القصة شخصيات أخرى غيره ، كالصديق والتاجر ، والحكيم ، وعيسى بن هشام نفسه راوية القصة ، وكل هؤلاء ينعون على الحياة المصرية تأثرها بالغرب الى هذا الحد ، وكل منهم أيضا شخصية قائمة بذاتها أبرزها الكاتب وأعطاها من المميزات ما يجعلك تتعرف عليها بسهولة .

---

(١) بلزاك ، أونوريه دو Balzac, Honoré de (١٧٩٩ — ١٨٥٠) : روائى فرنسى . يعتبر أحد أركان المدرسة الواقعية .

(٢) فلوبر ، جوستاف Flaubert, Gustave (١٨٢١ — ١٨٨٠) : روائى فرنسى من رواد الواقعية فى الادب الحديث . « الباحث » .

وبنفس الاتقان والبراعة رسم المويلحى صورا أخرى لبعض شخصيات الحياة المصرية فى ذلك الوقت ، أبرزها صورة (العمدة) وهى صورة تتضح للعين خلال مواقف متعددة ، يستعين المويلحى على تصويرها بحوار سهل ممتع .

قال عيسى بن هشام فى باب العمدة فى الحان : « وأخذ العمدة والتاجر وصديقهما الخليع طريقهما الى المكان ، فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة ، والليل زبحيا بقميص أبيض ، يبدو أدريمه كالأبنوس المفضض ، وعمد المصابيح كأنها أغصان الأشجار أزهرت بالأنوار ، وقد صفت تحتها الأرائك يجلس عليها الرجال والنساء . واتخذ العمدة مجلسا وراح صاحبها الخليع يسأل الخادم .

« — الم يشرف دولة « البرنس » هنا فى هذه الليلة ؟ »

وأجاب الخادم : « هو فى داخل المكان ، وسيعود الى مجلسه فى الحال » .

ويمتلىء قلب العمدة اجلالا واحتراما لصديقه الخليع ، ولكنه يهلع لوجود أمير فى مثل هذا المكان ، ويتساءل : « وهل يليق بنا أن نجلس للشرب فى حضرة أمير ؟ »

ولكن الخليع يهدىء روعه ، ويمنيه بمجالسة الأمير ، ومقاسمته الشراب ، والعمدة يتهم الخليع بالجنوح الى المغالاة ، ويستبعد هذا الخاطر كأمل بعيد التحقيق . ولكن الأمير لا يلبث أن يعود والخليع ينضم الى مجلسه ، يمهد للعمدة والتاجر السبيل ، ونرى الأمير بين جلسائه يسائل الخليع عن العمدة والتاجر ، والخليع يكذب ويدعى أنهما اضطراه الى مصاحبتهما اضطرارا ، فيقول أحد الجلساء ممازحا : بل لعلمها اضطراك الى سحبها اضطرارا » .

ويتدخل الأمير منكتا : « وهل هنا زريبة يابك » ؟

وهنا يبدو الرياء فى أوجه اذ يتسابق الجلساء ويتزاحمون فى تقريظ خفة دم الأمير الذى يشتد به الغرور ، فيقول انه لم يتعلم التنكيت وانما تأتيه النكات عفوا ودون أدنى مجهود .

وينتهى الأمر بانتقال الخليع الى العمدة والتاجر لدعوتهما الى مائدة الأمير ، ويرتبك العمدة ، ويهب واقفا ويسقط من يده « فم السجارة » فيتحطم ويعز عليه تحطمه اذ أعطاه له مأمور المركز ، بعد أن أهداه فرسا .

ويسير العمدة الى الأمير ، وينحنى له فيدفعه هذا بيده فيتناولها وينهال عليها تقبيلا ويشير عليه بالجلوس فيجلس بعد تمنع شديد ، ويقدم اليه الخليع سيجارة من سجائر الأمير ، فيحتفظ بها ولا يشعلها ، تأدبا فى الظاهر وحرصا منه فى الواقع على الاحتفاظ بأثر من الأمير يتفاخر به فى قريته . وفى تلك اللحظة يأتى أحد باعة الزهور فيهمس فى أذن الأمير بكلام يقهقه له ثم ينصرف البائع ثم يعود البائع من جديد فيلقى الى الأمير كلاما فيقوم فى الحال ويخرج والبائع فى أثره ... ثم يتسلل أتباع الأمير من بعده واحدا فواحدا ، فلا يبقى منهم أحد ، وتخلو المائدة للتاجر والعمدة والخليع . ويكتشف العمدة أن الأمير لم يدفع حسابه ، ولا حساب أصدقائه وأنه انصرف الى احدى ملذاته الليلية ، ولن يعود ، يقول الخليع : « أظن سموه لن يعود فى هذه الليلة وهذه عادته ، اذا قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته » .

ويسقط فى يد العمدة والخادم يطالبه بالحساب ، وهو يرفض أن يدفع ثمن ما شربه الأمير وصحبه وبينما هما فى شجار عنيف يدخل الحانه وكيل المديرية التى تتبعها قرية العمدة ، فيجد الأخير الموقف مواتيا للمباهاة ، فيلتفت الى الخادم قائلا :

« على بتفصيل الحساب ، وبين لى ما شربه دولة البرنس ، وما أكله

دولة البرنس ، وبكم شرب أصحاب دولة البرنس ، وكم شربنا مع البرنس ، وكم شرب قبلنا البرنس ، واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب ، وعد لأدفع لك الحساب » .

ويرفض الوكيل هذه الدعوة فينقل معه العمدة وصحبه الى داخل المكان ، حيث يجلس أصدقاء الوكيل .

قال عيسى بن هشام : فيقومون ويجلسون مع أهل ذلك المجلس ويطلب العمدة زجاجة من الشمبانيا ويرجوهم الشرب ، فيمتنعون ، ويشدد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكرا ... وتسوء حالة العمدة ، فيسحبه الخليع والخادم الى داخل المكان ، ليصلح ما فسد ثم ما لبثنا مدة ننتظر الأمر ونترقب له الرجعة والعودة حتى أقبل يتهادى فى مشيته بعد أن أفاق من غشيته ، وعمدوا الى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه .

لقد صور المويلحى الحياة المصرية فى أواخر القرن الماضى تصويرا فذا ، اعتمد فيه على الحوار والشخصيات والحبكة القصصية ، كما لم يفعل أحد قبله من الكتاب المصريين .

ان حديث « عيسى بن هشام » قصة ميت يبعث الى الحياة ، ويسير فى الأرض ولكنها مع ذلك قصة واقعية ، بل انها القصة المصرية الأولى التى تثير مشكلة من أهم مشاكل حياتنا . فنحن قد استوردنا المدنية الأوروبية لكننا لا نستطيع أن نقتلع جذور الحضارة الشرقية التى أنبتتنا ونحن نعيش فى الحاضر ولكن دم الماضى يجرى فى عروقنا ، وبين الحاضر والماضى تناقض واضح ، ومن هنا كانت الحيرة وكان القلق ... ومن هنا نشأت المشكلة .

رقم الايداع ٣٩٩٧ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب